تفضل مشكورا السيد أندري أزولاي،
مستشار جلالة الملك بترأس حفل
تقديم الطبعة الأولى بدبدو.

تشرف السيد سيرج بيردوغو، السفير
المتجول لصاحب الجلالة، والأمين العام
لمجلس الطوائف اليهودية بالمغرب ورئيس
مؤسسة التراث الثقافي اليهودي-المغربي،
بتقديم الطبعة الأولى، بالمتحف
اليهودي بالدار البيضاء. فليجد هنا
أسمى عبارات الشكر والتقدير.

الغلاف:
القصبة المرينية في دبدو ومحيطها.
(تصوير: جان مارك بورت)

الغلاف الأخير، يسارا: ضريح سيدي يحيى
في وجدة، الذي كانت تقدسه الطوائف الثلاثة:
اليهودية والمسيحية والمسلمة.
يمينا:
سفر التوراة، لفائف النصوص المقدسة،
الموجود دائما في بيعة وجدة الكبرى.
(تصوير: ميشيل ناشف)

الذاكرة اليهودية بشرق المملكة المغربية

ⵜⴰⵎⵓⵔⵜ ⵜⵉⵀⵓⴷⵉⵜ ⵖ ⵜⵎⵍⵍⵓⵍⵜ ⵏ ⵜⵖⵔⵉⴱⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ

صدر لوكالة جهة الشرق
بمنشورات ملتقى الطرق

BNI GUIL
Espaces des Hommes Libres
ISBN 978-9954-1-0393-7

LES GRANDS ESPACES
DE L'ORIENTAL MAROCAIN
ISBN 978-9954-1-0360-9

FIGUIG
La ville oasis du Maroc oriental
ISBN 978-9954-8924-1-9

À LA DÉCOUVERTE DE LA
FAUNE DU MAROC ORIENTAL
Itinéraires d'un naturaliste
ISBN 978-9954-1-0359-3

MÉMOIRES JUIVES DE
L'ORIENTAL MAROCAIN
ISBN 978-9954-1-0447-7

THE JEWISH HERITAGE
OF EASTERN MOROCCO
ISBN 978-9954-1-0517-7

L'ORIENTAL MAROCAIN
Des siècles d'art culinaire juif
ISBN 978-9954-1-0604-4

www.lacroiseedeschemins.ma
www.oriental.ma

الذاكرة اليهودية بشرق المملكة المغربية

ردمك : 978-9920-753-34-0
رقم الإيداع القانوني : 2021MO4661

«إنها الخصوصية العبرية التي تشكل اليوم، وكما كرس ذلك الدستور الجديد للمملكة، أحد الروافد العريقة للهوية الوطنية. وفي هذا الإطار، ندعو إلى ترميم كافة المعابد اليهودية في مختلف المدن المغربية الأخرى لتصبح، ليس فقط مكانا للعبادة، وإنما أيضا فضاء للحوار الثقافي ولإحياء القيم الحضارية للمغرب.»

مقتطف من الرسالة الملكية المؤرخة في 13 فبراير 2013

جلالة الملك محمد السادس
حفظه الله، خلال زيارة ميمونة
لجهة الشرق.

رسالة جلالة الملك محمد السادس

«أحد الروافد العريقة للهوية الوطنية»

مقتطف من الرسالة الملكية، التي تلاها رئيس الحكومة، إلى المشاركين في حفل افتتاح الكنيسة اليهودية «صلاة الفاسيين»، بعد ترميمها، بفاس، يوم 13 فبراير 2013.

«(...) إن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على غنى وتنوع المكونات الروحية والتراث الأصيل للمملكة المغربية، هذا التراث الذي انصهرت في بوتقته الخصوصية اليهودية المغربية التي يمتد تاريخها المتجذر بالمغرب وعبر طقوسه وخصوصياته، إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام.

إنها الخصوصية العبرية التي تشكل اليوم، وكما كرس ذلك الدستور الجديد للمملكة، أحد الروافد العريقة للهوية الوطنية. وفي هذا الإطار، ندعو إلى ترميم كافة المعابد اليهودية في مختلف المدن المغربية الأخرى لتصبح، ليس فقط مكانا للعبادة، وإنما أيضا فضاء للحوار الثقافي ولإحياء القيم الحضارية للمغرب.

إن التقاليد الحضارية المتأصلة للمغاربة، تستمد روحها من تشبعهم العميق بقيم التعايش والتسامح والوئام بين مختلف مكونات الأمة، في ظل القيادة الحكيمة للعرش العلوي المجيد التي قلدنا الله أمانتها.

وبصفتنا أميرا للمؤمنين، الملتزم بحماية حمى الملة والدين، والمؤتمن في نفس الوقت على حرية ممارسة الشعائر لكل الديانات السماوية، بما فيها اليهودية التي يعتبر معتنقوها الأوفياء من المواطنين المشمولين بموصول رعايتنا وسابغ رضانا، فإننا نؤكد لكم أنكم ستجدون في جلالتنا الراعي الأمين والحريص على نصرة هذه المبادئ المثلى.

وإذ نجدد لكم سابغ عطفنا ورضانا، فإننا ندعو الله تعالى أن يكلل جهودكم بالتوفيق، خدمة للصالح العام.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

الذاكرة اليهودية
بشرق المملكة المغربية

الذاكرة اليهودية
بشرق المملكة المغربية

مدير النشر
محمد امباركي

مدير التحرير
عبد القادر رتناني

اللجنة العلمية
عبد الإله الإدريسي، زهور رحيحل، محمد اگرو

الإدارة الفنية
إمانويل كالامي
أحمد عرفوي

الصور الفوتوغرافية
© ميشيل ناشف
© جان مارك بورت
© متحف التراث اليهودي-المغربي، الدار البيضاء
© مركز الثقافة اليهودية-المغربية، بروكسيل
© وكالة المغرب العربي للأنباء

الخرائط
© بول كولبوا - مدريد

الترجمة
سعيد عاهد

المراجعة
الكبير حنو

الطبع
Bilnet

ردمك
978-9920-753-34-0

رقم الإيداع القانوني
2021MO4661

أنجز هذا الكتاب بمبادرة من «وكالة جهة الشرق»
ونشر دار ملتقى الطرق.

ضريح سيدي يحيى بوجدة،
المقدس من الطائفة اليهودية
والمسلمون والمسيحيون.

فهرس

تمهيد 17

التاريخ العريق لليهود المغاربة 19

لما عارض محمد الخامس حكومة فيشي 32

وجدة، عاصمة في ملتقى الثقافات 34

وجدة، المدينة ذات الملاح المتفرد 41

الربي شلومو الكوهن الصقلي الصبان 48

دبدو، مركز إشعاع فكري 64

طريق لا تؤدي إلى أي مكان آخر 72

دبدو، زهرة المتوسط الروحية 77

«أسفاري إلى دبدو أعادت لي انتمائي المزدوج» 94

كان الأطفال المسلمون يتفادون عقوبة الضرب باللجوء عند زملائهم اليهود 102

فكّيك، الواحة الثقافية 108

فكّيك وعائلاتها اليهودية الكبرى 119

العين تجد أخيرا أين تنتعش 130

الطوائف وفضاءات الحياة في جهة الشرق 145

ثقافات مشتركة 167

يوم كيبور 180

الهيلولا في المغرب 190

سولانج تهيئ مائدتها 200

الاحتفاء بالذاكرة 206

قدم الحضور واستمرارية التعلق بالمملكة ورموز وحدتها 213

العودة الموفقة للتاريخ 228

ببليوغرافيا مختصرة 231

شكر وتنويه 233

مصادر وتعاليق الصور والرسوم 235

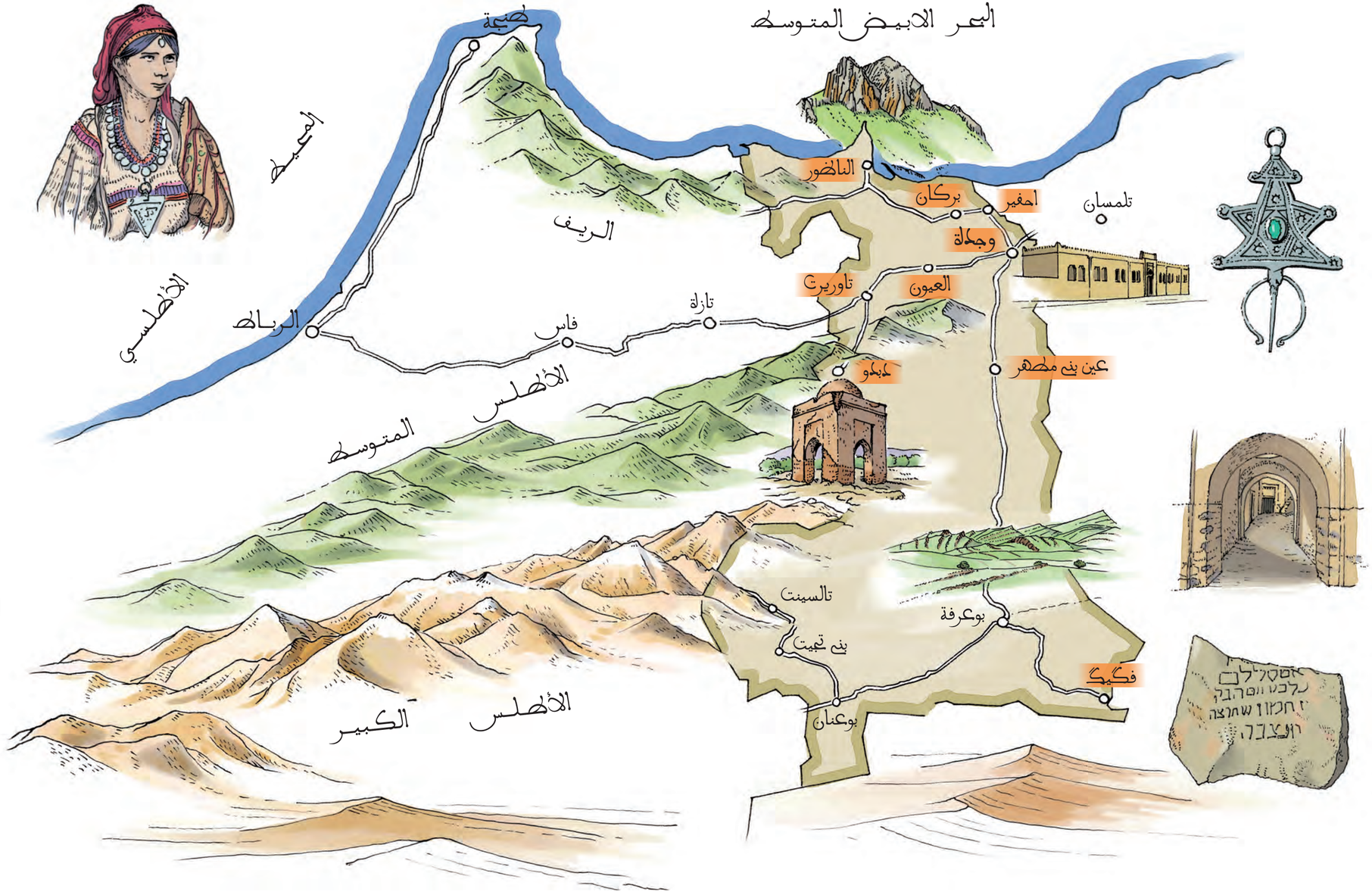

تمهيد

يعتبر هذا الكتاب الذي يتطرق لإحدى أقدم جاليات المملكة، الأول من نوعه المنجز بالمغرب. نود من خلاله تمكين القراء، المغاربة والأجانب، من اكتشاف وفهم وتقاسم الثقافة اليهودية-المغربية المتميزة على مستويات عديدة، ومعرفة أحد أهم معاقل اليهودية، جهة الشرق، التي شهدت ميلاد أجيال من رجال ونساء وأطفال مغاربة، فخورين دوما بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية على هذه الأرض التي من أخص سماتها قيمة التسامح. ذلك أنه في وجدة ودبدو وفكّيك أو بالناضور وغيرها، عاشت عائلات يهودية خلال قرون مضت، في تعايش تام مع الساكنة المسلمة. فالروابط من القوة، بحيث رغم مغادرتها البلاد، ظلت الجالية اليهودية متشبثة بجذورها.

ولعل خير شاهد على ذلك، قدوم أفواج عديدة من يهود مختلف بقاع العالم إلى المملكة كل سنة من أجل تجديد الروابط بجذورهم. فماذا يمكن القول عن ميمونة ؟ هذا العيد النموذجي لليهود المغاربة، المتميز بالتكافل والتضامن الذي ترسخ على مر القرون بين اليهود والمسلمين.

إن المناظر الطبيعية التي تزيدها ثنائية الضوء واللون ثراء وبهاء، لخير دليل على أهلية إحدى جنان المغرب المفقودة لاحتضان سعادة تقاسم الوجود مع الآخر الذي هو صورة عن الذات. كما أن الشهادات القوية والمؤثرة تجعلنا نعيش مرة أخرى بعض لحظات هذا التقاسم الفريد لذكريات غالية تنبعث من حدائق ماض سعيد يتحتم الحفاظ عليه ؛ إرث ثمين من واجبنا الحرص على نقله من جيل إلى جيل. فالمغرب تم دوما تشييد صرح حضارته بهويات متعددة في وحدتها، وقد خصص هذا الكتاب لإحداها، وهي ليست أيسرها شأنا.

إن إنجاز هذه الطبعة باللغة العربية تم استجابة لطلبات ملحة في هذا الشأن، وتخليدا للعودة الموفقة للتاريخ. فزخم هذا التاريخ وديناميته التي تتحدى عوادي الزمان والمكان، قاد الولايات المتحدة الأمريكية للاعتراف والتأكيد على السيادة الكاملة للمملكة على أقاليمها الجنوبية. فلا يمكن لقارئ ولا لكاتب تاريخ، أن لا يقف وقفة معرفة وتقدير، وهو يتأمل اللحظة التاريخية الحاسمة التي دونت رفض جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه، لقوانين حكومة فيشي المعادية للسامية.

فكلمة الختام لهذه الطبعة، تذكر في ومضات مكثفة بهذه المراحل الكبرى للتاريخ الكوني بشكل عام والمغربي بشكل خاص، مع ما يرافق ذلك من بحث إنساني مستمر عن الحقيقة والعدالة والسلام.

محمد امباركي

التـاريخ العـريـق لليهـود المغـاربـة

نظرة تاريخية موجزة حول الأصول

إذا كانـت هنـاك طائفـة يمكنهـا الشـهادة، عـبر تاريخهـا، أن ثمـة مـكان لجميـع الديانـات في أرض الإسـلام، فهـي بـكل تأكيـد الطائفـة اليهوديـة المغربيـة. ذلـك أنهـا اسـتفادت، منـذ بداياتهـا البالغـة في القـدم، مـن اسـتقلال ذاتي لم تُحـرم منـه عـلى امتـداد القـرون، بالرغـم مـن بعـض المراحـل الصعبـة. وقـد ظل المغـرب، منذ منشـئه، أرض اسـتقبال ورقعة تعايـش، ولكـن أيضـا حضنا للرحيـل والعـودة، وأحيانا للصراعـات. هذه التجـارب الهجريـة، الغنيـة والمتنوعة، اسـتدعت بالـضرورة ديناميكيات همـت طوائـف الانتـماء، واللغـات المسـتعملة، والحـدود والديانـات، ليتولـد عنهـا في نهايـة المطـاف مسلسـل الانعتـاق السـياسي.

إن الحضـور اليهـودي في المملكـة الشريفـة متجـذر في التاريـخ ويعـود إلى أكـثر مـن ألفـي عـام. وتؤكـد بعـض البقايـا الأثريـة، مـن ضمنهـا بقايـا شـواهد قبـور بعضهـا مكتـوب بالعبريـة، وجـود طائفـة يهوديـة عاشـت، حـوالي القـرن الثـاني قبـل الميـلاد، في مدينـة وليـلي الرومانيـة، غـير بعيـد عـن مدينـة مكنـاس الحاليـة.

وأكـثر مـن هـذا، فاليهـود لم يتخلفـوا عـن المقاومـة للتدليل عـلى تعلقهم بالبلاد: مقاومة محاولات الرومان بسـط هيمنتهم على البلد أولا، وبعدها مقاومـة البيزنطيـين الذيـن احتلـوا البـلاد سـنة 533. وفي هـذه الحقبـة، شـاركت قبائـل يهوديـة بهمـة في الكفـاح ضـد الإمبراطوريـة البيزنطيـة المحتلـة. وقـد حظـرت هـذه الأخـيرة ممارسـة الشـعائر الدينيـة اليهودية وأصـدرت مرسـوما قـضى بتحويـل جميـع المعابـد اليهوديـة إلى كنائس.

مصباح بشمعدان ذي سبعة عروش، المغرب، وليلي،
القرنان الرابع والخامس، برونز، متحف التاريخ والآثار بالرباط.

تختلف الملابس التقليدية اليهودية حسب المناطق.
الصورة جنبه: زي عريس.
الصفحة المقابلة: شابة بزي يوم عيد.
(رسوم: ج. بُرنسونو.)

لكن صرامة تطبيق هذه الإجراءات خُفّفت بفعل الضغط الذي مارسه اليهود.

تعتبر الساكنة اليهودية أول ساكنة غير أمازيغية استقرت في المغرب. وقد وجدت في أرضه أكثر من ملجأ: أرض استقبال؛ وهو ما تثبته الوقائع. ففي سنة 612-613، تعرض يهود شبه الجزيرة الإيبيرية إلى اضطهاد شرس من طرف القوط الغربيين. وقصد الإفلات من هذا الاضطهاد، أقدموا جماعات على الهجرة إلى المملكة. وانضم الوافدون الجدد إلى السكان الأصليين المقيمين سلفا في البلد، ليتوسع المجتمع تدريجيا، وذلك في انسجام مع الساكنة الأمازيغية الموجودة قبلا، بشكل نتج عنه الاختلاط بين المكونين: اكتساب اليهود للطابع الأمازيغي وتهويد بعض المناطق الأمازيغية؛ وإذا كان التسلسل الزمني للعملية غير مهم، فالأساسي يكمن في التداخل الذي تحقق بين المجموعتين الطائفيتين.

فتأسيس مدينة فاس سنة 808، على يد إدريس الأول، فتح المجال للطائفة اليهودية للاستقرار بالمدينة والشروع في ممارسة أنشطة مرتبطة بالصناعة التقليدية والقطاعين التجاري والاقتصادي. والحال أن هذه الحرية كانت منظمة بإطار قانوني: وضع أهل الذمة، وهو وضع يوفر الحماية للطائفة مقابل دفع الجزية التي هي ضريبة تضمن الاستفادة من الاستقلالية الإدارية والقضائية والثقافية.

كانت تلك انطلاقة مرحلة تاريخية مزدهرة، حيث غدت فاس، لمدة عدة قرون، العاصمة الإدارية للمملكة، وكذلك عاصمتها الثقافية والروحية بفضل علوم التلمود للربي إسحاق الفاسي في القرن الحادي عشر؛ وبصفة خاصة عقب ذلك بقليل، بفضل فكر موسى بن ميمون (ميمونيديس)، أكبر مفكري اليهودية المتوسطية خلال القرون الوسطى، الفيلسوف الذي أقام بالمدينة مدة ست سنوات، بين 1159 و1165.

وقد تزامنت هذه الحقبة التاريخية مع تأسيس سجلماسة (جنوب مدينة الرشيدية الحالية) من قبل بني واسول. وطورت هذه المدينة أنشطة تجارية زاهرة، لاسيما مع مصر والهند، وساهمت الطائفة اليهودية في هذه الأنشطة بنصيب وافر. وإذا كان من اللازم البرهنة على الحرية التي نعمت بها هذه الطائفة، فتكفي الإشارة إلى أن تنقل السلع والأشخاص كان يتم بدون أدنى عوائق؛ وتحولت سجلماسة بسرعة إلى مركز تجاري هام في المملكة. وعرف اليهود، عموما، عدة هجرات داخلية. ويندرج المغرب الشرقي ضمن المناطق التي انتعشت فيها اليهودية المغربية أكثر من غيرها.

ونظرا لموقعها البعيد عن المركز وحمايتها من قبل الجبال على وجه الخصوص، فإن هذه الجهة استقطبت ساكنة كبيرة العدد، كانت واثقة من العيش بسلم وأمان بالمنطقة، خاصة

أحد أزقة ملاح فكّيك.

أثناء فترات الاضطرابات. هكذا، شكلت مدينة دبدو الصغيرة مركزا تلموديا استثنائيا، تجاوز صيته الحدود على نطاق كبير. وسنعود لهذا الموضوع في فصل آخر من الكتاب.

وتخللت مجرى هذا التاريخ أوقات أزمة، وعلى وجه الخصوص خلال الحقبة الموالية التي كانت أكثر صعوبة، إذ تولدت عن الصراعات حول السلطة بين المرابطين والموحدين انعكاسات عنيفة على الطائفة اليهودية.

وتعرضت الأخيرة، بسبب نصرتها للمرابطين، لاضطهاد شرس من قبل الموحدين الذين باشروا بحماس، تحت لواء صنف من التشدد الديني، حملة لإجبار غير المسلمين على اعتناق الإسلام، كما ألغوا الوضع السابق لأهل الذمة. ومع ذلك، فالموضوعية تقتضي إضفاء قسط من النسبية على ما جرى إبان ذلك العهد.

وتوجد، في هذا الصدد، شهادات تصحح قليلا الفكرة التي يمكن تكوينها حول تلك «التغييرات الإجبارية للديانة»، والتي لم تكن، في الواقع، إلا اعتناقا شكليا للإسلام (الاكتفاء بالنطق بالشهادة فقط)، إذ أن جل المعلنين عن إسلامهم واصلوا ممارسة شعائر عقيدتهم الأصلية سرا. وفي هذا السياق، هناك مقولة دالة للفيلسوف موسى بن ميمون لا يرقى إليها الشك: «لم يسبق أن شهدنا اضطهادا بهذا الشكل، حيث لا يُفرض عليك إلا التلفظ ببضع كلمات».

وفي عهد الدولة المرينية أُنشئ أول «ملاح» بالمملكة، في فاس سنة 1438؛ فإثر توترات عنيفة بين الساكنة، قرر السلطان لم الطائفة اليهودية، تحت حمايته، في حي منفصل، بالقرب من القصر السلطاني في فاس الجديد.

بيد أن وضعية الطائفة تحسنت بشكل جد ملحوظ في عهد المرينيين؛ ومع اطراد ارتقاء أفرادها اجتماعيا، تولى العديد منهم مناصب مهمة في بلاط السلطان، كما تقلد آخرون مسؤوليات أساسية في مجال الجبايات.

وشكل ازدهار الطائفة اليهودية في المغرب هذا مفارقة جلية مع الأوضاع المأساوية التى كانت تصطلي بنارها نظيرتها في إسبانيا. ففي سنة 1391، تسببت سياسة التنصير الشامل لشبه الجزيرة الإيبيرية في انتفاضات دموية، تعرض خلالها بعض اليهود لمجازر في مدن متعددة: أشبيلية، قرطبة ومدريد...

لذا، قرر العديد منهم الهجرة إلى المغرب، مستبقين مرسوم طرد اليهود الموقع في 31 مارس 1492 من طرف إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة، الملقبة بإيزابيلا الكاثوليكية، وفرديناند الثاني ملك أراغون.

إبزيم حزام (فكرون)، ذهب مرصع بثلاث عشرة من أحجار اللازورد وزمردة، 6،5 × 6،5 سم، فاس، القرن التاسع عشر.

وجسدت هذه الهجرة الجديدة مصدر إغناء استثنائي للطائفة اليهودية المتواجدة سلفا في عين المكان، وتمخضت عنها تحولات عميقة سواء على المستوى الروحي أو على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. هكذا انبثقت مجموعتان عرقيتان: «المكْورشيم» أو المهجرون (أولائك الذين غادروا إسبانيا والبرتغال) و«التوشفيم» أو الأهالي (أولئك المستقرين في المملكة من قبل). وكانت تُطلق أيضا على الأولين تسمية «الروميين» وعلى الأخيرين «البلديين». ولا يخلو رصد تطور العلاقات بين المجموعتين من أهمية. فرغم توفر كل واحدة منهما على لغتها الخاصة وثقافتها وطقوسها الشعائرية المميزة، ستتخذ الصلات بين «المكْورشيم» و«التوشفيم» منحى التقارب تدريجيا بفعل التأثر والتأثير المتبادلين بينهما؛ ما سينجم عنه إثراء ثنائي، ذلك أن «المهجرين» كانوا يضمون بين صفوفهم عددا من الأحبار ورجالات الأدب والعلماء. وقد امتازت مساهماتهم الروحية بالأهمية، ووصلت إلى درجة إحداث تغييرات في بعض جوانب العلوم الربانية، كما أجازت لهم ثقافتهم الواسعة الانتماء إلى نخبة الطائفة. وهو ما ينطبق، على سبيل المثال، على «النكْيد»، وهو شخصية محورية نظرا لأنه يترأس «المعمد» (مجلس الطائفة)، ويسير شؤون إخوانه في الدين بواسطة مراسيم. و«النكْيد»، أساسا، هو همزة الوصل بين السلطات الرسمية (السلطان، المخزن، العمال...) من جهة، والطائفة من جهة ثانية. وكانت شؤون هذه الأخيرة تُدار بواسطة «التقنوت» (المراسيم) و«الرسبونسا» (الفتاوي الشرعية) التي تطبق حصريا على الطائفة اليهودية المقيمة في التراب المغربي باستقلالية تامة كما سبقت الإشارة.

وكان إسهام «المكْورشيم» مهما كذلك على الصعيد الاقتصادي، حيث تفوقوا في أنشطتهم التجارية على أنشطة المحليين. وبفعل اكتسابهم لمهارات ومعارف تقنية راكموها طيلة قرون، فقد تعاطوا للعمل في قطاعات صناعية تقليدية متميزة: تجارة المجوهرات، الصياغة وسك النقود. وكانت المهن المرتبطة بالمعادن النفيسة توكل بصورة منتظمة إلى «المهجرين» من إسبانيا، إضافة إلى أنهم نقلوا معهم حرفا جديدة مثل صناعة خيوط الذهب والفضة، ويطلق على العمال ممارسي هذه المهنة «الصقليين». ويعتبر آل كوهن الصقلي، وهو الاسم العائلي الذي لا يزال منتشرا في المغرب، منحدرين من هؤلاء الصناع التقليديين. لنقرأ هذه الشهادة لليون الإفريقي لتكوين فكرة عن تفوق اليهود في هذا المجال: «معظم الصاغة من اليهود الذين ينجزون أعمالهم بفاس الجديد ثم

يحملونها إلى المدينة القديمة لبيعها. (...) ولا يمكن صياغة الذهب ولا الفضة في المدينة القديمة، كما لا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يقال إن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا؛ ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل.»

مخاوف مقتسمة، أفراح مشتركة

لم تكن مكانة اليهود، في مجالي التجارة والمبادلات الدولية، مهيمنة فحسب، بل إستراتيجية كذلك بالنسبة للمغرب برمته. فقد عاشت المملكة مرحلة عصيبة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر: تهديد أمن التراب الوطني من قبل شبه الجزيرة الإيبيرية وسيطرتها على بعض المدن بالساحل المغربي (سبتة ومليلية). ورافق هذه العدوانية حملات تبشيرية وهيجان ديني إزاء كل «أعداء الإيمان الكاثوليكي المقدس المعلنين». وجثم صولجان محاكم التفتيش الإسبانية والمحارق التي كان «الكفار» غير المسيحيين يُحرقون فوقها أحياء، على صدور الجميع، المسلمين واليهود على حد سواء. وتقوّى التخوف من أن تصل هذه المحارق إلى المملكة... وفي ظل هذا المناخ العام، انبثق تضامن هائل بين الساكنة اليهودية والمسلمة وتسامى الانتماء المشترك على جميع التباينات القائمة. وتجسد معركة الملوك الثلاثة، في 4 غشت 1578، مؤشرا جد دال في هذا المنحى.

1020. DEBDOU (Maroc) - Femme Juive

كانت هذه المعركة، المعروفة أيضا باسم معركة وادي المخازن نسبة إلى النهر الذي جرت على ضفافه، حاسمة لأنها وضعت حدا لمشروع احتلال المغرب من قبل الملك البرتغالي سيباستيان الأول. وقد قاد المواجهات

السلطان الجديد، أبو مروان عبد الملك. وفي اليوم الموالي للانتصار، اتخذ أحبار المغرب قرار الاحتفال بهذا اليوم معتبرين إياه يوم «بوريم»، العيد اليهودي الذي يحيي ذكرى الإنقاذ المعجز لليهود من مذبحة كبرى.

عقب هذه الأحداث وعلى امتداد قرون طويلة، ستعهد الدولة المغربية بأنشطة التبادل والتجارة إلى اليهود دون غيرهم تقريبا، وسيستحيلون أكثر فأكثر طرفا في مشاريع المملكة التجارية. كما سيغدون، منذ ذاك، وسطاء في الطلبيات الإستراتيجية للملكة (الأسلحة، السفن الحربية) وتصير المبادلات التجارية البحرية من اختصاصهم. وسيتمكن عدد من اليهود المغاربة من الاستقرار في جبل طارق، فاتحين المجال بذلك لتطور المبادلات البحرية مع إنجلترا. ومن جهة أخرى، فأفراد الطائفة سيبرهنون عن كفاءاتهم العالية في مجال المفاوضات التجارية مع نظرائهم الأوربيين، ما سيؤدي بالأخيرين إلى خشيتهم نظرا لصيتهم كـ«وزراء مالية السلطان».

ولم يكن التضامن بين الطائفتين يقتصر على النخب اليهودية والمسلمة فحسب، بل يتجلى أيضا في الحياة اليومية للمواطنين الأكثر تواضعا من الديانتين معا. هكذا، لم يكن غريبا، إبان مواسم الجفاف، أن تناشد إحدى الطائفتين الأخرى الصلاة لطلب الغيث، ساعية بذلك إلى تدعيم صلاتها بصلاة الثانية... إضافة إلى تقديس أولياء منتمين للعقيدة الأخرى: مسلمون يتضرعون إلى أولياء يهود ويهود يتضرعون إلى أولياء مسلمين؛ وأكثر من هذا، لم يكن ثمة حرج في وجود أولياء صالحين مشتركين بين معتنقي الديانتين. ولم يكن غريبا كذلك أن يلتمس اليهود «بركة» المسلمين، بل إن بعضهم كان لا يجد حرجا في المشاركة في «المواسم».

ويتجلى هذا التضامن أيضا على الصعيد المالي، فلمواجهة الجبايات المفرطة القيمة المفروضة على أعضاء إحدى الطائفتين، كان السكان من الديانتين معا يساعدون بعضهم البعض عن طريق القروض المالية. ولم تتدخل الطائفة اليهودية مباشرة في أي صراع على السلطة؛ ولم تشارك، عقب سقوط الدولة السعدية، في أية مواجهة من هذا القبيل من المواجهات التي اندلعت حقبتها.

وبرز، على مستوى أكثر تعبيرا، نوع من التضامن مع مختلف شيوخ الزوايا. هكذا وعلى سبيل المثال، دعا شيخ زاوية إيليغ، الواقعة في الأطلس الصغير، سيدي علي، يهود إفران للإقامة بالزاوية وحثهم على المكوث في عين المكان لتوطيد سلطته والاستعانة بأدواتهم اللوجيستية

عقد زواج (الكتوبة) بين شمعون بن يحيى سمعون والسعدية بنت الربي يوسف بن أديبا. وكان كل "كتوبة" فريدا من نوعه، يحرره ناسخ بمناسبة الزواج.

أسرة يهودية مغربية، بداية القرن العشرين.

المادية. وبعد سيطرته على ميناء أگادير، طلب من التجار اليهود التعامل مع شركائهم الأوربيين كي يصبح ميناء المدينة مرسى توقف لبواخر شركة الهند الغربية، منميا بذلك الأنشطة التجارية للحاضرة. وعموما، فالعديد من زوايا المملكة استعانت باليهود لتنمية مناطقها اقتصاديا.

على هذا النهج تبلورت، على مدى قرون، هوية وثقافة عيش متفردتين للطائفة اليهودية المغربية؛ وهو ما يجسد أحد الفوارق بين يهود المغرب الكبير السفارديين ويهود أوربا الوسطى الأشكناز. وكما سجل ذلك حاييم الزعفراني، فالعلاقات بين اليهود والمسلمين لم تكن متسمة، في أرض الإسلام، بالعدوانية العنيفة التي طبعت علاقات اليهود والمسيحيين في البلدان الأشكنازية، حيث لم يكن ممكنا، بفعل ذلك الواقع، أي استيعاب أو تكافل. وقد تواصل هذا التضامن، المؤسس لهوية هذه الطائفة، على مدى التاريخ، حتى خلال المراحل الأكثر اضطرابا.

السلطان المثالي

خلال الحرب العالمية الثانية، قاوم السلطان محمد الخامس، طيب الله ثراه، بشجاعة نادرة، تطبيق قوانين حكومة فيشي، التي كانت السلطات الاستعمارية تسعى إلى فرضها (انظر الصفحات اللاحقة). وقد أعلن العاهل، خلال الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لاعتلائه العرش، عبر هذا التصريح الموجز والدال على: «أن المغاربة اليهود لهم نفس الحقوق والواجبات كالمغاربة الآخرين».

إن العطف والرعاية اللذين يحيط بهما العرش المغربي الطائفة اليهودية المغربية استثنائي فعلا. وقد توطدت، على مر القرون، أواصر ثقة متينة بين العرش والطائفة؛ وأسندت مناصب بالغة الأهمية ليهود: تجار، وسطاء تجاريون، خياطو السلطان، أمناء للمخزن، مستشارون للسلاطين والملوك، على غرار صاموئيل سومبال الذي

شغل مدة طويلة منصب الكاتب الخاص للسلطان سيدي محمد بن عبد الله في القرن الثامن عشر... وهي العلاقة التي طُبعت منذ ذاك بالاستمرارية؛ وخير دليل عليها الشهرة التي حازتها عدة شخصيات يهودية في الساحة السياسية الوطنية، وذلك منذ نهاية عهد الحماية. ويعتبر ليون بن زاكين الرائد في المجال، إذ عين وزيرا للبريد والتلغراف والتلفون في أول حكومة للمغرب المستقل. وبعده، سيتولى دافيد طوليدانو وزارة السكنى، وسيرج بيردوغو وزارة السياحة، وهو حاليا سفير متجول للمغرب. ومن بين أبرز وجوه الطائفة، لا بد من ذكر أندري أزولاي، مستشار جلالة الملك محمد السادس نصره الله: «إن ملحمة اليهودية المغربية متجذرة عميقا في تاريخ هذه البلاد ما يقيها من التعرض للتلاشي. ومن أجل إدراك واقعها الراهن الملموس وبواعثها، لا بد من التفكير في المليون يهودي مغربي المنتشرين في كل القارات، الذين عرفوا، جيلا بعد جيل، كيف يقوون ذاكرتهم وأرادوا ذلك، معلنين بدون عقدة غنى مغربيتهم.»

وكان اليهود المغاربة يمثلون أكبر طائفة يهودية في العالم العربي، حيث وصل عدد المقيمين منهم في المملكة 300 ألف نسمة سنة 1948.

قرية صيادين في رأس المذرات الثلاث، قرب الناظور.

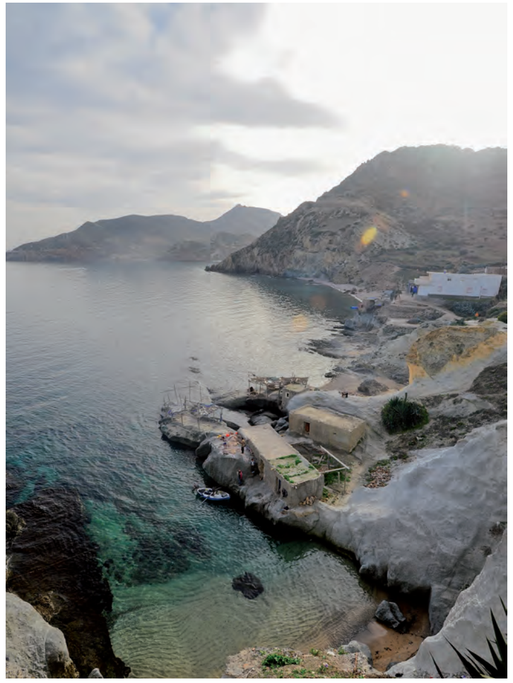

ذاكرة شرقية

يمتد المغرب الشرقي على مساحة 82.820 كلم^2 ، أي 6.11 % من مجموع مساحة البلاد، وهو بذلك ثاني أفسح جهة في المغرب من حيث المساحة، وله نفس الحجم الجغرافي لتونس وبلجيكا. ويحد البحر الأبيض المتوسط الجهة شمالا، وتتاخمها الحدود المغربية- الجزائرية شرقا وجنوبا. وقد أكسبها موضعها هذا موقعا جغرافيا يجعل منها ملتقى إستراتيجيا للطرق المغاربية. وبينما أهم السلاسل الجبلية فيها هي سلاسل الريف الشرقي وبني يزانسن، وكذلك الأطلس الكبير؛ فإن أكبر نهر هو وادي ملوية الذي يسقي سهولها.

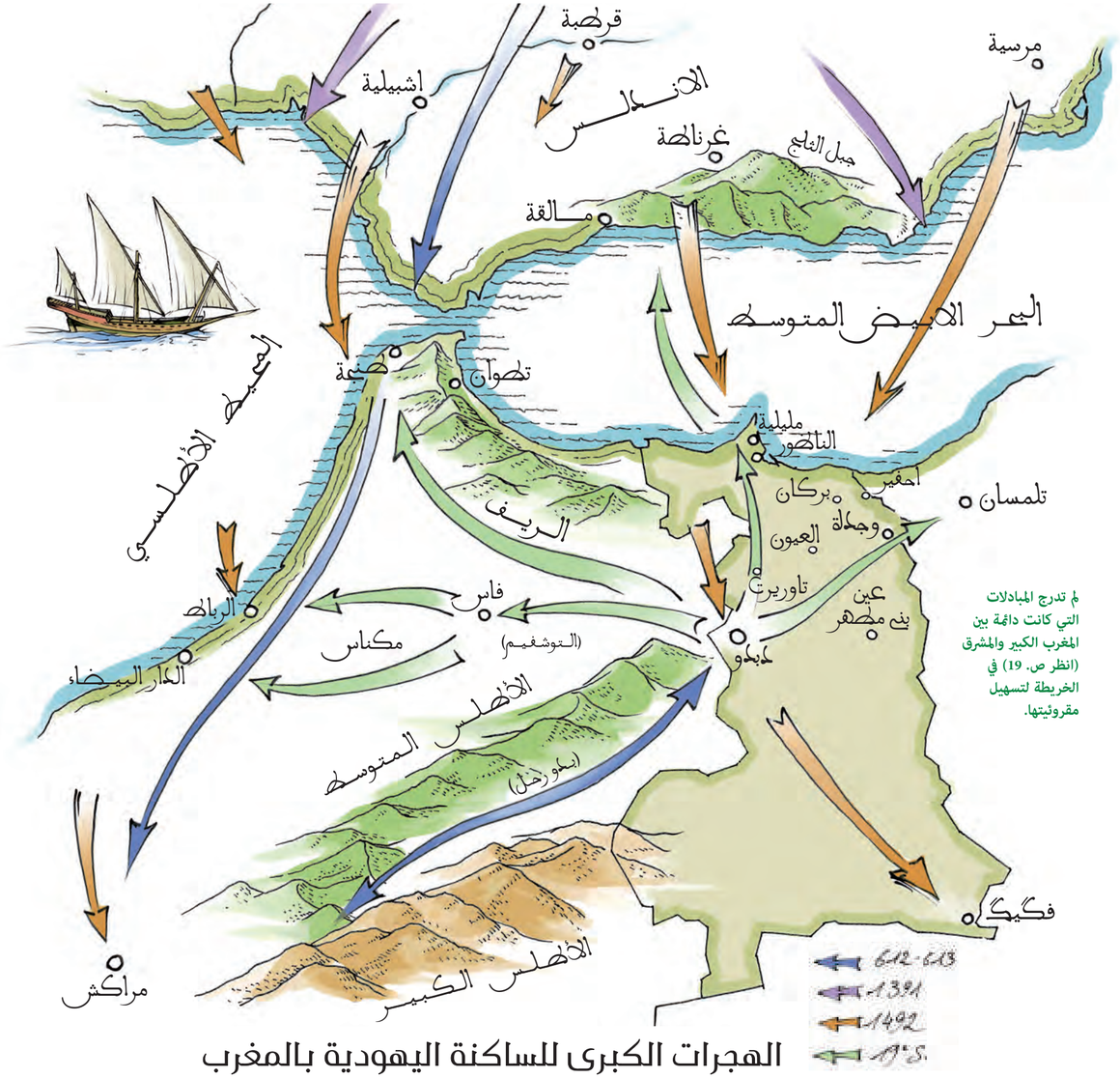

الهجرات الكبرى للساكنة اليهودية بالمغرب

لم تدرج المبادلات التي كانت دائمة بين المغرب الكبير والمشرق (انظر ص. 19) في الخريطة لتسهيل مقروئيتها.

لما عارض محمد الخامس، طيب الله ثراه، حكومة فيشي

خلال الحرب العالمية الثانية، لم يُفرض على اليهود المغاربة الخضوع لنفس مصير أبناء ديانتهم الفرنسيين الذين طُبقت في حقهم قوانين نظام فيشي المعادية للسامية، ذلك أن المغفور له محمد الخامس رفض بشجاعة تطبيق هذه القوانين في المملكة الشريفة.

وقد كان موقف السلطان مثاليا أثناء هذه الأوقات السوداء التي ارتاعت في خضمها الطائفة اليهودية من حصول الأسوأ. وقد أبان العاهل، في مواجهة المقيم العام الجنرال نوغيس، عن استقلال فكري وتصميم لا يتزعزع، معارضا على نحو ثابت كل نهج عنصري تمييزي ومعاد للسامية.

«اليهود سيبقون تحت حمايتنا»

يوم عيد العرش لسنة 1041، ذهب السلطان إلى حد دعوة الطائفة اليهودية للحفل الذي يقيمه بالمناسبة قصد إبراز دعمه لها وتضامنه معها. وتؤكد وثيقة عُثر عليها ضمن أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية في كي دورساي بباريس هذه الوقائع. ويتعلق الأمر بتلغراف مؤرخ في 24 ماي 1941، مُرسل من طرف روني تورين ومعنون بـ «انشقاق».

انشقاق، 24 ماي 1941، تلغرام للوكالة الفرنسية للإعلام، تغيير موقف سلطان المغرب إزاء السلطات الفرنسية، بقلم: روني تورين.

«(...) قرر السلطان أن يُظهر أمام الملأ أنه يناهض هذه الإجراءات التي اتخذت في حق اليهود؛ وانتظر مناسبة عيد العرش ليفعل ذلك. ومن عادة السلطان في هذه المناسبة أن يقيم مأدبة كبيرة يحضرها كبار الضباط الفرنسيين والشخصيات المغربية البارزة. غير أنه في هذه المرة، دعا ممثلي الطائفة اليهودية وأقعدهم في الصفوف الأولى، إلى جانب الضباط الفرنسيين. وأصر على تقديم الشخصيات اليهودية الحاضرة بنفسه. ولما أبدى الضباط الفرنسيون اندهاشهم من حضور اليهود في هذا الحفل، خاطبهم السلطان قائلا: **«إني أرفض كليا القوانين الجديدة المعادية لليهود، كما لا يمكنني أن أقبل أمرا أشجبه. وأحيطكم علما أن اليهود سيبقون، كما كانوا في الماضي، تحت حمايتنا، وأرفض أن يكون بين رعاياي أي نوع من أنواع التفرقة والتمييز»**. ولقد كان لهذا التصريح المؤثر وقع كبير على العامة، فرنسيين وأهالي.»

أرشيف العلاقات الخارجية، باريس، كي دورساي،
سلسلة «حرب 1939/45»، فيشي- المغرب، الملف 18. اليهود (قضايا عامة)،
رزمة 665، سلسلة: الهيئة الدبلوماسية (الملحق I).

جلالة الملك محمد الخامس
في منصة الخطابة.

سنة 1956، وهو في سان جيرمان أون لاي
في طريق العودة من المنفى، السلطان
يستقبل وفد الطائفة اليهودية المغربية
برئاسة الحاخام الأكبر صاؤول دانان
والحاخام شالوم مساس.

وجدة، عاصمة في ملتقى الثقافات

وجدة، المدينة ذات الملاح المتفرد ص.41

الفقيه والحزان ص.43

الربي شلومو الكوهن الصقلي الصبان ص.48

وجدة، المدينة ذات الملاح المتفرد

تقع وجدة شمال شرق المملكة، في قلب سهل أنجاد. وإذا كانت المدينة معروفة بصفتها عاصمة جهة الشرق، فهي تتميز ببعد إضافي يتمثل في كونها ملتقى الطرق بين المغرب الأقصى والمغرب الكبير وأوربا. تحد المدينة شمالا بجبال بني يزناسن الرائعة، وشرقا بالجزائر التي لا تبعد عنها إلا بكيلومترات قليلة.

جلب موقع وجدة الجغرافي الإستراتيجي ساكنة يهودية كثيرة العدد إلى المدينة. ويعود استقرار اليهود في المدينة إلى أزمنة بعيدة، مثلما تدل على ذلك بقايا المقبرة القديمة المسماة «قبور» اليهود؛ وثمة، بالفعل، روايات تاريخية متعددة تشير إلى هذا الحضور. وفي عهد السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727)، عاشت الساكنة في ظل الأمن والسلام، وهو ما تبرهن عليه الشهادة التالية لمؤرخ مسلم عاصر ذلك العهد: «تستطيع المرأة واليهودي أن يذهبا من وجدة إلى واد نون دون أن يسائلهما أي كان عن وجهتهما... ولا يوجد أي أثر في المغرب كله، لسارق أو قاطع طريق...»

كانت المدينة تستقبل كذلك سكانا وافدين من جهات أخرى من المملكة، وقد ورد في «رسبونسا»، مرسوم فتوى صادرة عن محكمة ربية ومؤرخة بـ1731: «اتجه يهود مدينة بني سنوس إلى وجدة ليقيموا بها أثناء فترة المجاعة التي سبقت موت السلطان». وتعود حركية الساكنة اليهودية الهائلة بين مناطق البلاد إلى أسباب اجتماعية واقتصادية أساسا.

«اليهودي واحد من أهلنا»

كانت التنقلات محفوفة بالمخاطر أحيانا بسبب قطاع الطرق، لكنه لم يكن استثنائيا، كما تثبت ذلك العديد من الشهادات في هذا الصدد أيضا، أن يمد أعضاء الطائفتين اليهودية والمسلمة يد المساعدة لبعضهم. هكذا، كان المسمى موسى بن أبراهام الكرساني ضحية لإحدى الغزوات، سنة 1732، خلال إحدى تنقلاته بالبادية المغربية، وكان جد محتمل أن تؤدي الواقعة إلى ما لا تحمد عقباه... لولا تدخل مسلم دافع عنه، مستعملا العبارات التالية: «إن اليهودي (موسى) واحد من أهلنا، وليس له أن يخاف من أي كان، ولن يحل به أي مكروه، وإن من وضع يده عليه كمن أصاب بؤبؤ عيوننا» (فتوى شرعية صادرة سنة 1732).

وعرفت سنة 1876 الانعتاق التام لسكان وجدة اليهود بفضل العامل إدريس بن يعيش الذي أعلن أن هذه الطائفة ستصبح تحت السلطة المباشرة للسلطان، وهو ما ساهم في تحسين ظروف عيشها بقدر كبير.

المهارة الحرفية الموروثة كانت حاضرة في جميع الملاحات.

الصفحة المقابلة: حبر، لوحة للرسام تيوفيل جان دولاي (1896-1970).

تقاليد الكرم

إن وضع ملاح وجدة نادر حقا ولا مثيل له؛ وبالفعل، فأغلبية التجمعات السكانية اليهودية بالمغرب كانت مغلقة على نفسها ومنزوية الموقع، على خلاف ملاح وجدة المتميز بانفتاحه على باقي الأحياء، حيث لم تكن بيوته منعزلة، بل متخالطة مع منازل المسلمين. بالطبع، كانت الطائفتان تعيشان منفصلتين، لكنه لم يكن ثمة حاجز مادي عازل يفصل حي أولاد عمران اليهودي عن بقية المدينة. وهذا الحي كان في الأصل مكان إقامة كبريات العائلات الوجدية العريقة، مثل آل سيناصر بلعربي، آل دندان وآل العربي مزيان... التي كانت كل واحدة منها توفر «الحماية» لأسرة يهودية واحدة على الأقل، وهي عادة كانت منتشرة في وجدة. وكان حسن الجوار يطبع التعايش بين الطائفتين، ومعمار البيوت اليهودية يشبه معمار المسلمة، وهي بيوت تتكون بشكل أساسي من بناية رئيسية منفتحة على أفنية. وفي أغلب الأحيان، كانت جميع الأسر القاطنة تستعمل نفس المطبخ. وكان هذا التقارب، على العموم، يمتاز بجو سلمي، مثلما كانت أوضاع طائفة وجدة اليهودية أفضل من أوضاع مثيلاتها في مدن مغربية أخرى.

هكذا، لم يكن أفرادها مجبرين على ارتداء الجلابية السوداء المفروضة في بقية البلاد نظرا لكونهم ذميين، بل يرتدون ملابس شبيهة بما يضعه جيرانهم من الطائفة الأخرى. وكان الرجال يلبسون عادة

سروالا قندريسيا تركيا منسوجا من القطن، وصدارا من قماش صوفي و«عباية» بيضاء من الكتان، يضاف إليها، على غرار المسلمين، جلباب صوفي؛ وكانوا ينتعلون بلغة صفراء ويضعون على رؤوسهم شاشية يلفون حولها قطعة قماش صفيقة تشبه «الرزة» أو العمامة.

أما النساء، فكن يتركن شعرهن يطول، والشابات منهن تبقينه متهدلا، بينما المتزوجات كن ملزمات بستره كاملا تحت منديل ملون. وشكلت هذه الساكنة النسائية يدا عاملة مهمة، ذلك أن وجدة كانت مشهورة بتقاليدها الحرفية في قطاعات الحياكة والغزل بتقنيات تنقلها الأمهات إلى بناتهن... وفي هذا الإطار، كانت النساء اليهوديات والمسلمات يخالطن بعضهن البعض وينسجن علاقات حميمية، ما خلق عامل تكيف اجتماعي إضافي بينهن.

في مؤلفه الصادر باللغة الفرنسية: «قل... اِحْك لي وجدة»، يتطرق الكاتب جان لوي أيزنكوت (Jean-Louis Azencott)، المزداد بمدينة وجدة سنة 1946، إلى التمازج بين الساكنة في المدينة كاتبا: «كان بعض العرب يعيشون هنا كذلك وسط يهود الملاح، في رحم تفاهم تام واحترام متبادل جلي. (...) الجميع يعرف ملكة هاتين الطائفتين الفطرية في مجال التجارة التي كانتا تمارسانها بانسجام في هذه المجموعة الفتانة من الأسواق البلدية، الطافحة بالفرص وبالسلع المتنوعة بقدر ما هي غير مألوفة.»

وهناك مؤشر آخر على هذا التسامح المتبادل: فعلى امتداد أجيال، كان الاحتفال بالميمونة، وهي عادة يهودية منتشرة في المغرب الكبير بمفرده دون غيره من البقاع وتصادف آخر أيام عيد الفصح اليهودي، يتم بنفس الطريقة لدى الطائفتين: طقوس الوضوء، مأكولات تعتمد في طبخها على «الخميرة» والإنصات للموسيقى الأندلسية... ولم يكن غريبا أن تقام الاحتفالات بحضور الطائفتين الدينيتين معا.

الفقيه والحزان

وعلى مستوى بعض المعتقدات، كانت العادات متقاربة كذلك، يستعمل اليهود والمسلمون في سياقها مواد متماثلة؛ فـ «الحرز» مثلا، وهو تميمة تستخدم للوقاية من العين الشريرة، كان يسلم من طرف «الفقيه» والحزان على حد سواء ويتضمن إما آية من القرآن وإما بضع كلمات بالعبرية. ففي وجدة إذن، المدينة المختلفة المكونات، كان الآخر شبيهي...

ومن بين التقاليد اليهودية بوجدة، نجد تقليد الاحتفال بيوم كيبور(يوم الغفران الأكبر) الذي كانت الطائفة ملتزمة بإحيائه. ينتقل الحاخام الذابح، في هذه المناسبة، عند الأسر لتأدية الطقس المتفرد لهذا اليوم الخاص: التلويح بدجاج فوق رأس كل واحد من أفراد العائلة بينما تُتلى الصلوات والأدعية. وجرت العادة بأن يتم ذبح ديك لكل رجل،

بناية المدرسة اليهودية
السابقة بوجدة.

ودجاجة لكل امرأة وثلاث دجاجات للنساء الحبالى. وإذا كان الحاخام الذابح هو من يسهر على هذه الشعيرة، فإن وجبة العشاء تتكون من حساء دجاج مضاف إليه أمحاح بيض غير ناضجة، يرفق بها خبز خاص.

إلى حدود بداية القرن العشرين، ضمت وجدة ثلاث بيعات: «اشنوغة» أولاد ابن الدرعي، «اشنوغة» أولاد يشو و«اشنوغة» الهبرة، وكانت لفائف التوراة المرتلة فيها تُجلب على العموم من دبدو. وكان الحبر الإمام يضع الأسفار المقدسة فوق المنبر الموضوع بين أعمدة الكنيس، وقراءتها تتم بواسطة مؤشرة فضية في طرفها يد صغيرة. ودأب المؤمنون الميسورون على إهداء نسخ جديدة من التوراة للبيع لتعويض النسخ التي بدأت حروفها تتلاشى، لتُدفن الأخيرة بمهابة في المقبرة اليهودية بالمدينة. وإلى حدود بداية القرن العشرين، ظلت هيئة أولاد الهبرة الخيرية مسؤولة عن صيانة المقبرة، وهي هيئة مهمتها السهر على القيام بكل ما يتعلق بمراسيم الجنائز، كان رئيسها يدعى يوسف أزولاي.

سنة 1907، كان قاطن في وجدة من أصل كل خمسة سكان يهوديا، وبلغ عدد أفراد الطائفة اليهودية فيها 1200 نسمة. ووصل هذا العدد، في 1936، إلى 5000 نسمة، ليرتفع إلى 9000 سنة 1948. وخلال عهد الحماية، تحولت المدينة إلى فضاء حقيقي للامتزاج، ذلك أنها استقبلت ساكنة يهودية وفدت من الجزائر وإسبانيا أضيفت إلى الطائفة الأصلية. وبشكل طبيعي، تأسست مدرسة فرنسية- عبرية في المدينة سنة 1914، وأقام في وجدة أيضا أوربيون من جنسيات أخرى (ألمان، سويسريون، برتغاليون، إيطاليون). ولم يكن أي تمييز موجودا بين هؤلاء الرجال والنساء القادمين من آفاق مختلفة، حيث إن وجدة جسدت مثالا نموذجيا للاندماج الناجح.

ويلزم التذكير، من جهة أخرى، بأنه في مرحلة الكفاح الوطني من أجل استقلال المغرب، شكلت وجدة، بفعل قربها من الحدود الجزائرية- المغربية والفرنسية- الإسبانية، بؤرة للوطنية والمقاومة جد نشطة، انخرطت في سياقها الساكنة اليهودية.

ومن ضمن الرموز المعبرة عن التعايش السلمي بالمدينة، تجدر الإشارة إلى أن الطائفتين اليهودية والمسلمة كانتا تقدسان أحيانا نفس الولي الصالح؛ وهو ما ينطبق على ضريح سيدي يحيى الذي يظل، إلى حدود الآن، مقدسا من طرف أتباع الديانتين.

الصيدلية
الشرقية
L'Orientale
Pharmacie
Rhumix
NORLEVO

OTEL

الربي
شلومو الكوهن الصقلي الصبان

لا يمكن الحديث عن الطائفة اليهودية بوجدة من دون ذكر اسم الحاخام الأكبر شلومو الكوهن الصقلي الصبان. وقد كانت جنازته، سنة 1949، مهيبة شارك في مراسيمها مسلمو المدينة بكثرة. ويظل ضريحه في مقبرة وجدة، إلى حدود اليوم، مزارا ومحجا لليهود الوافدين من جميع بقاع العالم. وتحيطنا شاهدة قبره علما بالمسار الاستثنائي لهذا الولي الصالح المزداد في دبدو.

«غاب آخر الحقانيين،
الزاهد غادر الأرض!
(...) نذر كل حياته للتوراة،
مُستوضَحا منذ سن الخامسة عشر عاما
من قبل الحكماء والأحبار الوافدين من كل مكان،
حسم كل القضايا
بحكمة وإيجاز،
وينبوغ جدير بسليمان.
كان قاضيا محققا وهو في الخامسة والعشرين
وصار نابغة في التوراة.
تمتع بالتيجان الثلاثة
ومعها، في الأعلى، تاج السمعة الحسنة.
كان يسير دائما في طريق المقدس
وفي طريق العفة.
عنه قيل: «سليمان الحكيم».
الحاخام الأكبر، رئيس المحمكمة الربية
الحاخام شلومو الكوهن الصقلي الصبان
– إن ذكرى الحقاني بركة.»

ضريح الربي شلومو الكوهن
الصقلي الصبان في مقبرة وجدة.

سنة 1949، شيعت جنازة الربي شلومو
الكوهن الصقلي الصبان من طرف حشود
كبيرة وأعيان الطوائف الثلاثة.

BOUAZIZ MESSAOUD
1893-1958
REGRETS ETERNELS
TON SIMPLE REGARD NOUS CHARMAIT
ET TON SOUVENIR NOUS DEVORE
O PERE, EPOUX CHERI
COMME TU NOUS MANQUES
VA, REPOSE EN PAIX, SUIS L'ETERNEL
DECEDE LE 3 SEPTEMBRE 1958

Regretté de ses enfants
petits enfants
et de toute sa famille

IT YAHYA CHARBIT
le 31 Mai 1858
decédé le 18 Juillet
1921 a l'âge de 63 ans
Regretté de tous

קדש לה'
מאת החכם
אברהם בן
יצחק נצר

نزل سيمون
HOTEL SIMON

دبـدو،
مركز إشعـاع
فكـري

طـريق لا تـؤدي إلى أي مكـان آخـر
بـقـلـم شـمـعـون لـيـفـي ص.72

دبـــدو،
زهـرة المتـوسط الـروحية ص.77

«أسـفـاري إلى دبـدو أعـادت
لي انـتـمـائي المـزدوج» ص.94

طريق لا تؤدي إلى أي مكان آخر

تقع دبدو في نهاية طريق لا تؤدي إلى أي مكان آخر. وهي مدينة صغيرة يجعلها موقعها حاليا على هامش المسارات، الطرقية والسككية، الرابطة بين غرب المغرب ووجدة، ثم الجزائر فيما بعد. ترتفع الهضبة السهبية، حيث تقع البلدة، مكونة سلسلة من الروابي والتلال، تصل أعلى قمة فيها إلى 1650 مترا.

على بعد أربعين كيلومترا من نهر ملوية، توجد منطقة تكسوها نسبيا الخضرة، صالحة لزراعة الجنائن. هنا تقع دبدو حيث بقيت تعيش، سنة 1973، سبع عائلات يهودية فقط، آخر ما تبقى من طائفة كانت تتميز، في بداية القرن العشرين، بتشكيلها لأغلبية واسعة من سكان البلدة. ودبدو اليوم مقر دائرة، وسوق للقبائل الرعوية المجاورة وموعد للقناصة المنجذبين إلى الطرائد الوفيرة.

من الصعب التصور أن دبدو كانت مغايرة لما هي عليه اليوم خلال عصور طويلة. ومن اللازم فحص الخريطة بواسطة عيون قائد قافلة لإدراك الفوائد التي كانت توفرها هذه الرقعة الجغرافية نظرا لأمنها ومواردها، وخاصة بفضل موقعها كملتقى للطرق، واقع بعد مضيق تازة، وسط الطرق المترية الرابطة بين فاس وتلمسان، تلك الطرق التي تنحدر من الأطلس وتمر عبر وادي ملوية، وعلى وجه الخصوص الطريق الصاعدة من تافيلالت، من الصحراء، في اتجاه البحر الأبيض المتوسط والجزائر.

وتفسر هذه المعطيات الأهمية التجارية (والسياسية) لدبدو، وكذلك أهمية «الكُعدة» القريبة منها، بالنسبة للمخزن والسلطات الجهوية. كما يوضح موقعها هذا سبب «إشعاع» الطائفة اليهودية بدبدو، والتأثيرات التي خضعت لها (فاس، تافيلالت وتلمسان) ولماذا حل بها اللاجئون الأوائل من إسبانيا، «إشبيليو خيروس سبيليا»، بعد سنة 1391.

ولم يقصد إلا عدد يسير من هذه الموجة الأولى للمهاجرين الإسبانيين المراكز الكبرى لليهودية المغربية. وبالمقابل، فطوائف تونس العاصمة ومدينة الجزائر وتلمسان مدينة بقسط من إعمارها للهجرة الجماعية من مملكة أراغون في بداية أزمة اليهودية الإسبانية الكبرى. ووفق معارفنا الحالية، فإنه من الصعب التحديد الدقيق للمسار الذي سلكه «المكُورشيم» المستقرون في دبدو: هل قدموا «مباشرة» أم بعد إقامة طويلة أو قصيرة المدى في القطاع الوهراني؟ ومهما حدث، فلا بد من الإقرار بوجود تقارب بين لهجتهم واللهجات اليهودية في تلمسان، ومدينة الجزائر، الخ.

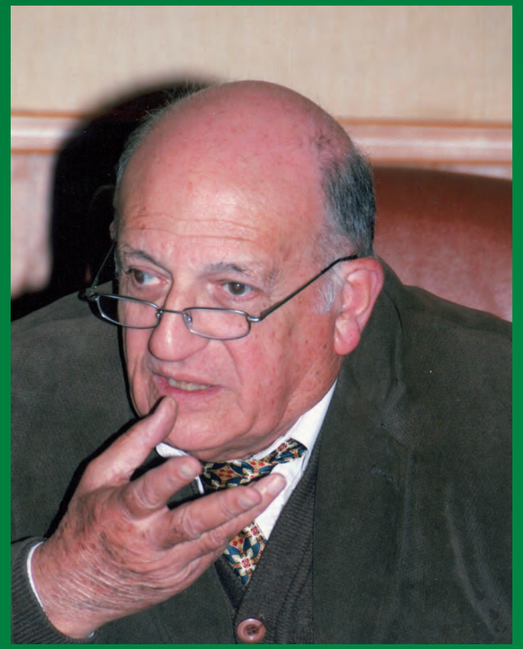

يربط يهود دبدو، أو بصيغة أدق العشيرتان المسيطرتان، آل كوهن الصقلي وآل مرصيانو (أو مورصيناو) أصولهم بإشبيلية، وقد كانوا، حتى سنة 1929، يذيلون وثائقهم وعقودهم بـ «سبيلية»، مشبهين دبدو بمدينة أصولهم البعيدة. وقد أطلقوا اسم «عين سبيلية» الدال على أهم نبع مياه في البلدة.

ويبدو، في الواقع، أن أولاد مرصيانو قطنوا، قبل الإقامة بدبدو، في موضع يسمى قصبة المخزن، ما يدعو إلى الاعتقاد بأن استقرار «خيروس سيبيانوس» في المدينة مر بمراحل. وقد وجدوا، في دبدو، ساكنة يهودية محلية؛ كما أن عائلات أخرى من «البلديين» التحقت بهم في البلدة.

جنبه: شمعون ليفي (1934-2011).
على اليسار: منبع عين اسبيلية الأسطوري، قبل ترميمه.

وتؤكد دراسة أسماء الأعلام، بالقدر الذي يمكن أن تحظى نتائجها بالمصداقية، هذا الرأي الذي اعتمده شلومو الكوهن.

وفي القرن السابع عشر، نقلت هجرة جماعية يهود دبدو إلى دار ابن مشعل في قبيلة بني يزناسن، وقد عادوا منها في سنة 1690 لما دك مولاي إسماعيل الموضع.

هذه الطائفة التي كان نشاطها الأساسي هو التجارة، محليا وفي مناطق أخرى بعيدة، انتشرت قبل الحماية وخلالها في جميع ربوع المغرب الشرقي: القصابي، ميسور، أوطاط الحاج، تازة، وجدة، تاوريرت، جرسيف، ميدلت، الريف ومليلية؛ وفي الجزائر كذلك، الخ.

وجدير بالتذكير، في الأخير، بأن وثاقة الروابط مع تلمسان والجزائر لم تخل من تأثير على اللهجة المستعملة في دبدو على مستوى الاستعارات اللغوية، ذلك أن كلمات إسبانية كانت مشتركة بين لهجات القطاع الوهراني ووجدة ودبدو، وأن استعارات مبكرة من الفرنسية وردت من الجزائر...

شمعون ليفي، مؤسس المتحف اليهودي المغربي بالدار البيضاء.

دبـدو،
زهـرة المتـوسط الـروحيـة

شرق نهـر ملويـة، تقع مدينة صغيرة غير معروفـة لدى البعض، حاضرة كانت، مـع ذلـك، مركـزا اسـتثنائيا لليهوديـة المغاربيـة. إنهـا مدينـة دبـدو التي تقع شـمال شرق البـلاد، عـلى بعـد 100 كيلومتر من وجـدة، ومن حقهـا أن تفتخر بتقاليدهـا العريقـة في مضـمار حسـن الاسـتقبال. وهـي تمتـد فـوق منحـدر عـلى سـطح هضبـة القصبـة، وثمـة دليـل على انفتـاح المدينـة على الخـارج لا يمكـن للزائـر أن يخطئـه، يتمثل في غياب أية أسـوار محيطة بها. وتنقسـم إلى خمسـة أحيـاء هـي: الكياييـد، أولاد عبيـد، أولاد يوسـف، أولاد عـمارة والملاح الذي يوجد وسـط المدينة ويحتل أكبر مسـاحة منها. وتعتبر السـاكنة الناطقة بالأمازيغيـة أول مـن اسـتقر في المـكان، كـما يؤكـد ذلـك علـم أصـول أسـماء المواقـع الجغرافيـة (كلمـة دبدو تعني «القمـع» باللغـة الأمازيغية»).

وقبـل الفتـح الإسـلامي في القـرن السـابع، التحقـت بالمدينـة قبائـل يهوديـة، اندمجـت تمامـا مـع السـاكنة المحليـة واعتمـدت نمـط عيشـها الجبـلي، وذلـك إلى درجـة يمكـن الحديـث معها عـن انصهار بـين اليهود والبربـر، بحيـث أصبـح مـن المتعـذر تقريبـا التمييـز بينهـم إلا اعتـمادا عـلى بعـض تفاصيـل الملبـس الدقيقـة؛ كـما أن بعـض السـكان المحليـين اعتنقـوا الديانـة اليهوديـة. كان ذلـك منطلـق تاريـخ طويـل، وصـارت دبـدو بعـد بضعـة قـرون مركـزا متميـزا لليهوديـة المغربيـة.

كانت البلدة تسـتقبل بطيبة خاطر السـكان اليهود الفارين من الاضطهاد في شـبه الجزيـرة الإيبيريـة، والملتحقـين بالسـكان الأصليين المقيمين سـلفا بهـا. محميـة مـن قبـل جبـال وهضبـة الأطلـس الصغـير، ومتوفـرة عـلى موقـع جغـرافي بعيـد عـن المركـز، كانـت دبـدو أقل عرضـة، مـن نظيراتها مراكـش أو فـاس، للقلاقـل الناجمـة عـن الصراعات حـول السـلطة. وأكثر مـن هـذا، فمناعتها الناتجة عـن تحصيناتها الطبيعية وتضاريسـها الوعرة كانـت تجعـل الهجـمات ضدها صعبـة. ولم يفـت الدولة المرينيـة الانتباه إلى هـذا الامتيـاز الإسـتراتيجي، هـي التي حركتهـا إرادة إعادة بنـاء وحدة الإمبراطوريـة المغاربيـة المفقـودة. وقـادت المرينيين سياسـتهم التوسـعية إلى بلـوغ المغـرب الشرقـي، حيث سـيطروا على تازة سـنة 1216. وارتبطت أطـماع الاسـتيلاء عـلى دبدو بموقعها الجغـرافي الخاص بشـكل وثيق، نظرا لموضعهـا على الحـدود بين دولتي تلك الحقبـة المتصارعتين: المرينيون من جهـة وزيانيـو تلمسـان من جهـة ثانية.

هكـذا، سـتمثل المدينـة رهانـا مهما في سـياق الـصراع بين الدولتـين حول مد سـيطرتهما عـلى الجهـة. وبعدهـا، خـلال القرنـين الخامـس عشر والسـادس عـشر، ستشـكل الحـاضرة الشرقيـة مجـددا منطقة حمايـة إسـتراتيجية ضد أطـماع الإمبراطوريـة العثمانيـة الراغبـة في وضع اليد عـلى المملكة الشريفة.

بيوت دبدو المبنية بالآجر، 1912.

الصفحة المقابلة: دبدو حاليا.

أيامها، أضحت دبدو معقلا محصنا، ذلك أن المنشآت التي شيدها بها بنو مرين كانت أساسا ذات أهداف عسكرية ودفاعية، وهذا ما تشهد عليه القصبة الرائعة. وتنتصب الأخيرة على ربوة ذات قمة مسطحة ومنحدر شديد الانحدار، على علو يتراوح بين 1140 و1190 مترا، وهي محاطة بأسوار عالية تشتمل على عدة أبراج. وعلاوة على المنشأة، حُفر خندق حولها وهُيِّئت مغارات، وإلى هذه الأخيرة كان يتم اللجوء خلال النزاعات. وقد لجأ إلى دبدو ابن خلدون نفسه، أشهر المؤرخين الأفارقة، الذي كتب الشهادة التالية بهذا الصدد: «فاعترضونا هنالك، فنجا من نجا على خيولهم إلى جبل دبدو، ونهبوا جميع ما كان معنا، وأَرْجلوا الكثير من الفرسان، وكنتُ من بينهم، وبقيت يومين في قَفْره، ضَاحيا عاريا، إلى أن خَلصتُ إلى العمران، ولحقت بأصحابي بجبل دبدو...» وحول قوة واستقلال المدينة المعارضة لكل استرقاق من أي نوع كان، يقدم ابن خلدون شهادة قيمة تعود وقائعها إلى 1365/1364 ويقول فيها إن أبي حمو «افتعل الحركة إلى المغرب (...)، وانتهى إلى دبدو» ونواحيها، «وقصد محمد بن زكراز (المريني) أيضا في معقل دبدو فامتنع بحصنه الذي أخذه هناك»، وأنشأ زعيم المنطقة مدينة مستقلة. ويضيف أن سلطان فاس اعترف باستقلال دبدو والمنطقة؛ وأن زعماء دبدو حاصروا مدينة تازة وهجموا عليها، وأن محمد الشيخ حاول صدهم لكن محاولته باءت بالفشل؛ وأن سلطان فاس زَوّج ابنتيه لابنين لحاكم دبدو، وهو ما اعتبره ابن خلدون فدية السلم. وكانت دبدو أكثر من مدينة، بل إمارة؛ ففي القرن الخامس عشر، بزغ إلى الوجود «أمراء دبدو»، وسيستمر حكم موسى بن حمو، مؤسس الإمارة وزعيم المقاومة المحلية، ثلاثين سنة. وسيخلفه ابنه أحمد في 1460، ليعقبه حفيده محمد بن أحمد. ويعود الفضل لهذا الأخير في تشييد العديد من مباني المدينة، لاسيما مسجدها الوحيد ذو المعمار الموريسكي.

في هذا المعمار، لم يكن ثمة هامش للزخرفة والزينة، وهو يشمل بيوتا تقليدية من الحجارة المحلية الجافة والآجر. واعتُمد، من بعد، نفس نمط البناء سواء في حي الملاح أو في الهضبة. وزيادة على هذا، تضم المدينة معالم متعددة، وآثار الإمارة المرينية، والمدينة العتيقة، والمقبرة اليهودية، والدواوير الجاثمة على نجد الكْعدة والمناظر الطبيعية الجبلية الخلابة.

ويعتبر القسيس دو فوكو أول أوربي زار دبدو، وذلك سنة 1885. ولم تَحُل قسوة أحكامه إزاء السكان المحليين دون وصفه لها على اعتبارها مدينة «عذبة»:

«ظهرت دبدو: مدينة صغيرة تشرف عليها مئذنتها. تنثر دبدو تحت أقدامي منازلها الوردية في قعر واد أخضر. تنتشر حواليها المراعي والبساتين. في الأعلى ترتفع جدران عالية من الصخور قممها مشجوجرة

«دبـدو بـقيـت فـي وجداني»

«وفـدت عائلتـي مـن إشـبيلية في الأصـل، وقد عشـنا أبا عن جـد في دبدو إلى سـنة 1920، السـنة التـي ذهـب خلالهـا جـد أبي إلى فلسـطين تلـك الحقبـة. أمـا جدي، فرحل من دبدو سـنة 1953، بينما اختـار والدي البقاء في المدينة. إن غالبية أسر دبدو تنتمي لآل كوهن الصقلي، واسـم الصقلي هـذا يحيـل على شـهرة يهـود هذه البلـدة الذيـن كانوا نبـلاء جميعهم.

كان الوالـد تاجـرا، تاجر شـاي، ما ينجم عنه أننا كنـا، في الأسرة، على اطلاع واسـع بالمجـال. كنا نشرب الشـاي بـدون نعنع، أي خالصا! واشـتغل الوالد كذلـك في قطـاع نقل الخشـب بواسـطة الشـاحنات، كما كان يسـير متجرا للأغذيـة الزراعيـة. خلاصـة القـول إنـه كان متعـدد الأنشـطة التجاريـة. وإضافـة إلى ذلـك، كان شريكا لمسـلم، ولم تحصل بينهما أدنى مشـكلة. أما الوالـدة، وهـي دبدوبيـة أيضا، فكانـت ربة بيت.

تقليد خبز الفطير بمناسبة بيساح

يمثـل إعـداد خبـز الفطـير الخاص ببيسـاح، عيد الفصـح اليهـودي، إحدى أقـوى ذكرياتي بدبـدو. وكان هـذا الإعـداد في حد ذاته طقسـا بكل معنى الكلمـة! قـرب بيعـة «صْـلاة الكواهنـة» حيـث كان أبي يـؤدي صلواتـه، كان يوجـد فـرن، فيـه تجتمـع النسـاء طوال شـهر لتهييئ الفطـير بطريقة تقليديـة محضـة. وكان الأمـر يخضـع لعمليـة متسـقة. كـن يجلسـن متحلقـات، وكان عليهـن إعـداد العجينـة بالطحـين والمـاء بسرعـة حتى لا تختمـر. كانـت إحداهـن تحـرك العجـين، بينـما أخرى تسـكب المـاء عليه وغيرهـا تدلـك العجينـة... كن يـدورن الفطائر، ثم يفلطحنهـا قبل وضعها عـلى ألـواح خشـبية لتُدخـل إلى الفـرن. حقـا، كـن يطبقـن نظامـا فعليـا للعمـل المتسلسـل! ويتـم تهيـئ مـا بـين 150 ومائتـي فطـير يوميـا لـكل عائلـة، تتناولهـا طيلـة الثمانيـة أيـام التـي يدومها بيسـاح. كنـا نضعها في علـب كرتونيـة لنقلهـا إلى البيت، وقطرهـا يبلغ حوالي عشرة سـنتيمترات. وبالطبـع، فـلا علاقـة لهـا البتة مـع الفطائـر الصناعيـة لأيامنـا الحالية.

كانـت وجبـات بيسـاح تشـمل لحم الخـروف بالكـمء الذي كنـا نجده في دبـدو ووجـدة، والـذي كان يطبـخ أيضـا مـع الكسـكس. بيـد أن «الوجبة الوطنية» في دبدو كانت هي الحمص الذي يطهى وفق جميع الوصفات: مع البيض والدجاج وفي الطاجين... لقد كان مثل الأرز بالنسـبة للصينيين!

في دبدو، نقاش بين إسحاق كوهن والمالك الجديد لمحل تجارة والده.

وهنـاك ذكـرى أخرى مؤثـرة، هي «روش حودش» أو أول الشـهر. يجب، في هـذا اليـوم، التضحيـة بديـك، وهـو مـا كنـا نلتزم بـه عبر ذبـح فروج. ويقـوم بالذبـح حاخـام، وقـد كانـوا كثـيري العـدد في دبـدو التـي كان اليهـود، للتذكـير، يشـكلون أغلبية سـكانها.

الرحيل... ثم العودة

في 1956 وبعـد إقامـة عابـرة في تاوريـرت، اسـتقررنا بوجـدة. وأتذكـر وجـود مدرسـتين اثنتين حينها في المدينة: المدرسـة الفرنسـية- اليهودية، حيث كانت تدرس العبرية والعربية والفرنسـية على حد سـواء، ومدرسـة التلمود- التوراة المتخصصـة في تدريس النصوص المقدسـة والتي كانت دروسـها مسـائية.

بقينـا مسـتقرين في وجـدة إلى سـنة 1965، وبعدهـا انتقلنـا إلى الـدار البيضـاء. وعقـب حصـولي عـلى شـهادة الباكالوريـا، ذهبـت إلى مدينـة سـتراسـبورغ لدراسـة الطـب، وبقيـت هنـاك إلى سـنة 1983، السـنة التي تزوجـت أثناءهـا. حينهـا جئنـا، زوجتـي وأنـا، إلى المغـرب لقضـاء شـهر العسـل. وفي آخـر المطـاف، قررنـا خوض المغامـرة المغربية فاسـتقررنا في الـدار البيضـاء. وهـو القـرار الـذي لم نتأسـف عليـه!

لمـا عـدت إلى المغـرب، أديـت فيـه خدمتـي المدنيـة لمـدة سـنتين، وقـد أمضيـت ثـلاث عـشرة سـنة في فرنسـا، لكننـي لم أطلـب أبـدا تجنيسـي.

كانـت زيـارة دبـدو من بين الأمـور الأولى التي قمت بهـا تزامنا مع عودتي إلى المغـرب. المدينـة عمـرت طويـلا في لاشـعوري، ويبدو لي أنني لم أنسـها إطلاقـا. وحتـى خلال مقامـي بالغرب، فهي بقيـت في وجداني.»

إسحاق كوهن

تتوجها الكُعدة. نزلت إلى هذا المكان المبتسم الذي يوصل إليه طريق صعب؛ مستقيم وشاق. (...) توجد دبدو في موضع عذب. (...) لا شيء يمكن أن يعبر عن جمال هذا المشهد. تحيط بدبو بساتين غناء من كروم وزيتون وتين ورمان وخوخ فتكون أجمات كثيفة قرب المدينة وفيما وراءها، ممتدة على جوانب الواد في شكل شريط داكن.»

يسمح هذا التذكير التاريخي بفهم الاختيار الذي أقدم عليه اليهود المطرودون من إسبانيا والقاضي بالاستقرار في دبدو: ففي عين المكان يشعر الإنسان بالأمن أكثر مما قد يشعر به في غيره من الأمكنة. منحدرين من عائلات الأندلس النبيلة، كان الوافدون ينتمون للنخبة اليهودية الإسبانية الأرستقراطية: أحبار وعلماء وأدباء جاؤوا بحثا عن ملجأ في جهة شرق المغرب، المعروفة بكونها أكثر أمانا من بقية جهات المملكة. وكان تقليد قديم يقتضي منح تسمية جديدة لموضع الاستقبال، والحال أن العائلات المرحلة من إسبانيا قدمت أساسا من إشبيلية ومرسية. لذا، واستعادة لتاريخها المجيد، أطلقت على منبع ماء بدبدو اسم «عين سبيلية». كانت هذه العين تشتهر بكونها معجزة، ذلك أن مياهها تدفقت عقب صلوات

أسرة يهودية مغربية، بداية القرن العشرين.

أحد المطرودين، الربي دفيد الكوهن، زعيم الطائفة وأحد أبرز وجوهها بالمدينة. وقد بُني الحي اليهودي حول هذا المنبع المائي.

ستصبح المدينة قطبا ليهودية متنورة، ومنارة للعلوم التلمودية، تتمتع بمستوى فكري رفيع وبصرامة أخلاقية عالية، إلى درجة أن صيتها ذاع في مختلف ربوع المغرب ووصل إلى الجزائر. وشكلت المدينة الصغيرة الشرقية، بالنسبة لهذه الطائفة المأخوذة بالحنين للحقبة الذهبية السابقة على الاضطهاد المسيحي، نوعا من الامتداد للمرحلة الإشبيلية تلك؛ وهو ما سمي بـ «أيام العز» في دبدو. وبلغ عدد الكنائس اليهودية التي بُنيت

فيها زهاء اثنتي عشرة، ما يشهد على الحضور اليهودي المكثف بها، أي كنيس في كل حي إذا جاز التعبير. وهناك معطى جدير بالتوقف عنده، يتمثل في أن كثافة السكان اليهود بدبدو كانت، إلى بداية القرن العشرين، الأعلى مقارنة مع باقي مدن المملكة. وبالفعل، فهي الموقع الجغرافي المغربي الوحيد الذي كان عدد اليهود فيه يتجاوز عدد المسلمين، إذ كانوا يمثلون أكثر من نصف الساكنة البالغة 4000 نسمة.

دبدو، الوقورة

في ما يلي شهادة لمدير الرابطة اليهودية العالمية بفاس، وهي تتطرق لوضع اليهود إبان المجاعة التي تسلطت على المغرب الشمالي في 1897: «يهود دبدو ليسوا فقراء مثلما هو حال اليهود في أغلب مدن المغرب. الكثيرون منهم يتقنون حرفة وغالبيتهم يمارسون التجارة. ونصادف ضمنهم عددا كبيرا من الأحبار جد المتعلمين. وهم يتمتعون بقسط كبير من الكرامة، ولم يشحذوا أبدا، ولم يتوجهوا إلا لبني ديانتهم في فاس لتغطية مصاريف شؤونهم الدينية. «(مقتطف من نص بالفرنسية: «عين سبيلية، إشبيلية جديدة في شمال إفريقيا»).

خلال الحماية الفرنسية، كانت دبدو بوتقة عرقية ودينية، تضم سكانا مغاربة عربا وبرابرة، وجزائريين، وفرنسيين، وإسبانيين ويهودا مغاربة.

وكانت بين ظهرانيها أيضا محكمة ربية و«بِشِفا»، أي مؤسسة لدراسة التوراة والتلمود كانت تستقطب طلابا كثيرين يأتون للتكوين بها. ومثلت هذه المدرسة، طوال أجيال، خزانا مهما لـ «التلاميذ الحاخامات» الذين مارسوا عملهم في المدينة نفسها، ولدى الطوائف خارجها، بل وفي الجزائر كذلك. وكانت المدينة مزودا حقيقيا للجهة برمتها، ولخارجها أيضا، بالأحبار؛ والوعاظ الورعون إلى درجة قصوى، يجوبون البلد منتقلين من كنيس إلى آخر، من أجل تلقين معارفهم وإحياء شعلة الإيمان، مساهمين بذلك في توثيق العلاقات مع أفراد الطائفة المستقرين في أمكنة نائية. «البِشِفا» بدبو كانت نموذجية، شؤونها تُدبر بواسطة هيكل تنظيمي مثير للإعجاب، ولهذا تبوأت مكانة قطب رحى فعلي لليهودية المغاربية على امتداد قرون. وبشكل طبيعي، عين المخزن قائدا كمسؤول على يهود دبدو، بينما كان يكتفي بتسمية شيخ فقط على رأس أغلب البلدات المغربية.

وتجسدت إحدى اختصاصات المدينة في كتابة الأسفار التوراتية (اللفائف التوراتية المقدسة) من طرف النساخ (سوفر)، الاختصاصيين رفيعي المستوى والمتصفين بورع يقدره المؤمنون كثيرا. وكان فن الخط في دبدو، الذائع الصيت خارج حدود المملكة نفسها، جد مرغوب فيه نظرا لمهارة النساخ المنقطعة النظير ولجودة الرقوق المستعملة. وعلى مستوى الكنيس، كان أحدها يحظى بتقديس خاص من اليهود الدبدوبيين، هو كنيس الدّوكّان الذي كان يقع في قلب المدينة، وهو عبارة عن هيكل صغير على صورة هيكل القدس، كان يشتمل على سفر توراة عتيق، وهو لفافة من التوراة مكتوبة بخط اليد. وكثيرا ما كان الناس يلتجئون إليه لفض نزاعاتهم، وتقوم تعاليمه مقام أحكام المحكمة الربية، علما أنه كان يسمى سفر توراة زابارو نسبة إلى الحبر الذي نسخه.

وفي سنة 1974، حصل إسحاق رابين، الوزير الأول الإسرائيلي والشخصية السلمية، كهدية على سفر توراة نادر يعود أصله إلى دبدو، مخطوط على جلد غزالة؛ وقد سلمه لمتحف إسرائيل.

عائلتان كانتا تهيمنان على المدينة: آل كوهن الصقلي وآل مرصيانو؛ أصول الأولين من إشبيلية والأخيرين من مرسية. وكان زعيم آل كوهن الصقلي هو الشيخ دفيد بن حيدا، وإليهم ينتمي الحاخام الأكبر يوسف الصبان. أما زعيم آل مرصيانو، فكان دفيد عكو مرصيانو. وثمة مؤشر آخر على

أسر دبدو اليهودية المقيمة في المغرب الكبير خلال القرن التاسع عشر

المدن	الأسر
مليلية	68
فاس	60
تلمسان	29
وجدة	17
مارتامبراي	17
تاوريرت	15
بركنت	20
تموشنت	12
صفرو	9
وهران ومدينة الجزائر	8
نيمور	8
مغنية	7
رحال	7
طنجة	5
الدار البيضاء	3
المجموع	**267**

جاذبية المدينة يبرز في كون كثير من أسر كوهن الصقلي استقرت أولا، وهي تغادر إسبانيا، في حاضرة فاس المرموقة... التي لم يترددوا في الانتقال منها للاستقرار في المدينة الشرقية. وبالمقابل، فعدد من أفراد الطائفة غادروا دبدو ورحلوا إلى أماكن أخرى في المملكة، بل وإلى الجزائر. لكنهم حافظوا على خاصية عدم القطيعة مع موطن جذورهم الصغير. وهناك إحصاء مهم للعائلات اليهودية المنحدرة من دبدو يبين أن عدد يهود المدينة المنتشرين عبر المغرب والجزائر كان يساوي، على الأقل، عدد الذين مكثوا مستقرين فيها، وذلك إلى حدود القرن التاسع عشر.

مزارات مشتركة

ثمة فضاء آخر تتحقق فيه التوفيقية بين الطائفتين، يجسده بعض الأولياء الصالحين الذين كان يقدسهم المسلمون واليهود على حد سواء، ما يعتبر نموذجا مدهشا للتعايش الثقافي. وكثيرا ما كان ظهور ولي صالح يهودي يتم عن طريق مسلم يسرع إلى إخبار الطائفة بالحدث. وكل مسلم ساهم في اكتشاف ولي أو حضر لحظاته الأخير، ينال منصب حارس لمزاره، مع كل ما ينجم عن المنصب من امتيازات.

هكذا، تجعل التقاليد، في كثير من الأوقات، للولي الصالح اليهودي مصاحبا مسلما يرافق سيده في جميع تنقلاته، ويقدم له كل ما يحتاجه من خدمات ويتعلق به أمتن تعلق، بل يكون أحيانا الشاهد الأوحد على سكرات موته.

يكتسي مسلسل نيل القداسة، الطريقة التي يتحول عبرها شخص إلى ولي صالح خلال حياته أو بعد مماته، أهمية قصوى من عدة جوانب. ومن البديهي أن أول علامة على القدسية هي القيام بمعجزات، ويتم

أهم أضرحة الأولياء المقدسين... من طرف الطائفتين

• **سيدي يوسف الحاج،** الكائن بالملاح، عاش في القرن الخامس الهجري. يقال إنه يقي النساء من العقم.

• **سيدي بوقنادل،** الكائن بالملاح. وتعود كنيته إلى كون الضوء شوهد داخل الضريح عدة مرات دون أن يقوم أحد بإنارته. ويقال إنه يشفي آلام الرأس. وكان المرضى الذين يلتمسون الشفاء منه يحضرون معهم شمعة وبخورا. وكان مزارا للمسلمين واليهود.

• **سيدي المخفي،** بساحة اسْعيد. عاش خلال القرن الخامس الهجري وتعود تسميته إلى كونه قضى كل حياته من دون أن ينتبه أحد إلى قدسيته، وأن معجزاته لم تُعرف إلا بعد وفاته. ويقال إنه يقي من الحمى.

• **سيدي أمْحمد الساحلي (سيدي يوسف).** عاش في القرن الثامن الهجري. وضريحه عبارة عن بناية صغيرة واقعة في طريق القوبين بالقصبة. كان يزوره المسلمون واليهود على حد سواء. ويروى أنه يشفي من جميع الأمراض.

• **سيدي محمد بن عبد الرحمان التواتي.** توفي قبل حوالي خمسين سنة وخلف أربعة أبناء ما زالوا يقطنون في دبدو. كان يجلب عددا كبيرا من الزوار ومشهورا بعلاج أمراض مختلفة.

وتُذَكّر شواهد قبور عدد من الحاخامات الكبار، المشهورين بعلمهم الشرعي وقدسيتهم، بالتاريخ المجيد لهذه المدينة. وهذه أسماء بعضهم:

• **الربي دفيد الكوهن الصقلي:** قاض ومن أعلام القبالا (علم التصوف اليهودي) الملهمين، وكانت دروسه في دبدو تعرف إقبالا كبيرا.

• **الربي هارون الكوهن الصبان:** درّس التوراة في دبدو وكان محبا للخير العام.

• **الربي دفيد الكوهن بن داوود:** حاخم وقاض وقبالي متضلع، درّس التوراة مدة طويلة بدبدو قبل أن يصبح رئيس المحكمة الربية في وهران.

• **الربي يوسف بن غربة،** الملقب من طرف المسلمين «**مول الغابة**».

كونت دبدو، طوال قرون، حاخامات
مرموقين، وكان الطلب على
الاستفادة منهم كبيرا عبر العالم
بأجمعه نظرا لجودة تعليمهم.

التعرف على الولي عن طريق قدرته الخارقة على تحقيق معجزات، من قبيل العلاج من الأمراض. وتندرج الحياة الورعة والزهد والسلوك المثالي ضمن معايير القدسية كذلك. ومن شأن التبحر في علوم التوراة، خاصة بصحبة النبي إلياس، أن يؤدي إلى التكريس. ووفق العديد من التقاليد، فهؤلاء الأولياء كانوا يتابعون حصص تعلمهم حتى بعد وفاتهم، بجوار قبورهم. وثمة سبيل آخر يؤدي إلى نيل التقديس، هو الرؤيا الحلمية. ويضطلع الحلم، لدى اليهود المغاربة، بدور حاسم، وتطبيق الرسالة التي يحملها إلزامي. وكان يحصل، في هذا السياق، أن ينجز ولي صالح معجزة بمجرد الوحي له بها في الحلم: فالحاخام إلياهو، مثلا، عالج امرأة من العمى؛ وظهر الحاخام هارون أسولين في النوم ليهودي، وأنذره بقرب حدوث فيضان نهري ووعده بإنقاذ الموضع اليهودي.

حلم مسلمة من دبدو

ويوحي الولي الصالح بنفسه في أحلام المسلمين أيضا. وقد ظهر الحاخام إسحاق القنسي في حلم مسلمة كانت تسكن قرب المقبرة اليهودية بدبدو وعين لها موقع قبره؛ وجراء هذا، قررت المحكمة الربية إقامة

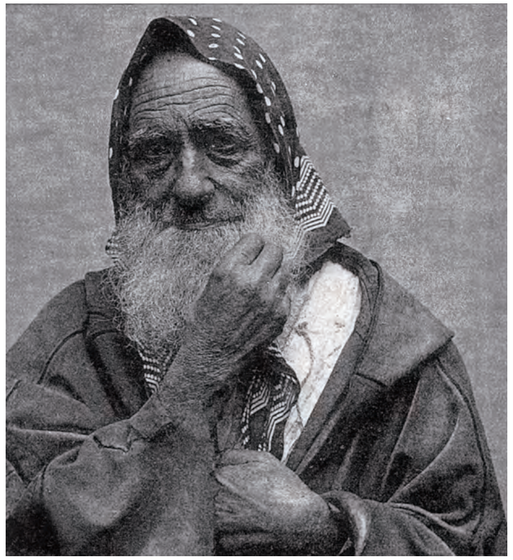

ضريح له في المكان المحدد. وبناء عليه إذن، فحلم مسلمة أدى إلى الكشف عن ولي من أولياء يهود دبدو الصالحين.

كان للمسلمين دور مهم في الأنشطة الاقتصادية ذات الصلة بعمليات الحج وبالأضرحة، وبفضل تعاونهم كان باستطاعة اليهود أداء الشعائر المكرسة لأوليائهم بكل طمأنينة. وفي حالة وجود المزار في منطقة خطيرة، كان الحجاج اليهود يكترون خدمات حراس مسلمين مسلحين يرافقونهم إلى وجهتهم. وبالنسبة لبعض المزارات المنعزلة التي

هذه الصورة الشهيرة التي
استعملت أكثر من غيرها لتشخيص
الطائفة اليهودية المغربية،
التقطت ليهودية شابة من دبدو.

يستحيل وصولها إلا على ظهر الحمير أو البغال، كان اليهود يلتجئون إلى فلاحي المنطقة المسلمين لتأجير الدواب. وكانت أنشطة الفلاحين المسلمين التجارية تبلغ أوجها بمناسبة الزيارات الكبرى للأضرحة المشهورة على وجه الخصوص، حيث يزودون الحجاج بالقطيع الموجه للذبح، وبالحطب، وبالماء وبكل المواد الغذائية الضرورية.

كانت جميع هذه الأنشطة الاقتصادية، المفيدة بدون شك للمجتمعين معا، ترتكز على التعاون والثقة، والمسلمون كانوا ينتظرون سنويا بنفاذ صبر حلول هذه الأيام الكبرى.

وحاليا كذلك وكل سنة، يأتي أكثر من 5 آلاف يهودي من مختلف ربوع العالم إلى المغرب لتكريم الأولياء الصالحين دفناء أرض الإسلام هذه، الذين كان أسلاف أسلافهم يقدسونهم.

«أخي، سواء كنت يهوديا، عربيا أو مسلما، فنحن نريد السلم، اتركني أصلي.»

لا يمكننا إنهاء هذا الفصل دون الحديث عن جمال نساء دبدو. لقد كان سكان المنطقة يدندنون كثيرا بأغنية للمطرب عباس سالم الريسي؛ فلننشدها معهم لأنها ستساعدنا ربما على إعادة اكتشاف الروح السائدة آنذاك في هذه المدينة الاستثنائية إلى حد كبير:

«عَمَّر دبدو ما واطيتو،
وواحَد النُّوبة آدَّاتْني رَجلي ليه
خَرْجتْ فِيَا يهودية
وَدَّات عقلي وخلَّاتْني بْلَا بِيه.»

(لم أطأ أبدا أرض دبدو،
وذات مرة قادتني رجلي إليها
صادفتني يهودية هناك
فسلبت عقلي وتركتني بدونه.)

«أعادت لي أسفاري إلى دبدو انتمائي المزدوج»

«غادرت المغرب رفقة عائلتي في 1964، وشعرت بالسعادة حين الوصول إلى فرنسا، ذلك أنني كنت طفلا مشغول البال، أتمنى أن يجعلني «العالم الجديد» الذي سأحل بين ظهرانيه شخصا آخر، طفلا أكثر سعادة. وذلك كان انخداعا سحريا لم يتحقق بصورة سحرية، بل العكس هو ما حصل.

وأنا في سنتي العشرين، لم أعرف ما أفعله خلال العطلة المدرسية. ولأنني أعشق ركوب الدراجات الهوائية، فقد اشتريت خريطة لفرنسا وتركت باريس للسفر عبر الطرق؛ توجهت أولا شمالا، وعقبها جنوبا من دون أدنى وجهة مقررة سلفا. كنت أقطع مائة كيلومتر يوميا. عبرت المدن: بوردو وبياريتز، وبعدها الدول: إسبانيا والبرتغال حيث مررت بسعادة. وفي منطقة الغرب بجنوب البرتغال، ذكرتني المشاهد الطبيعية في المدن ومعمارها بالمغرب، فاستقلت الباخرة للالتحاق بجدي من أمي، يعقوب ليفي بروفنسال، بالرباط ، وهناك قضيت أعياد السنة العبرية الجديدة، روش هشانا.

سنوات بعد هذا، عام 1982 وأنا في الثانية والثلاثين من العمر، كنت ما أزال أبحث عن ذاتي. كنت أرغب في أن أعرف المزيد عن والدي، الرجل الغامض الذي كان كثيرا ما يتحدث عن دبدو وتاوريرت لضيوف البيت، حكايات كانت تبدو لي لافتة للنظر، بل مثيرة للضحك أحيانا؛ لكنها حكايات كنت أعثر ضمنها على بعض من تحليلاتي ومن تأملاتي التي ظلت ملغزة بالنسبة لي. أفكر في كتاب كنت أحبه جدا وهو معروف ربما هنا: «ديكارت ليس مغربيا». كنت مهووسا بالسؤال التالي: هل أنا من الشرق أم من الغرب؟ هل توجد جسور عبور بين الاثنين؟

كان ثمة شبه حظر على الحديث عن دبدو وتاوريرت وسط العائلة التي كانت تهيمن عليها ثقافة الوالدة المنحدرة من الرباط. وقد بلغت الأمور بالوالد، لما عرضت عليه مشروع الذهاب إلى مسقط رأسه، تاوريرت، ومدينة دراسته، دبدو، إلى درجة أنه طلب مني بأن أقسم بأن لا أقوم بذلك. وشرح لي بأنه عدل عن فكرة العودة إلى المغرب نهائيا بسبب شعوره بأنه تخلى عن أصدقائه المسلمين العديدين، وذلك حين رحل بسرعة من البلاد، وأنه لن يستطيع تحمل نظراتهم.

أقسمت له بالفعل، لكنني أعترف أنني رحت إلى المغرب سنة 1988 برفقة أصدقاء وأختي دانييل؛ رحت والخوف يتملكني، الخوف من تحدي المحظور، الخوف من اكتشاف أمر خطير متعلق بأصولي. وفي عين المكان، أدهشني جمال المشاهد الطبيعية، الروابي الوردية أو الحمراء، المساحات الخضراء المترامية وحسن مدينة دبدو، المدينة المعلبة وسط الهضبة. سعدت بمشاهدة ما كان يراه والدي ويهود دبدو، رؤية محيطهم المادي والذهني.

لحظة مشاركة: برنار كوهن في مائدة الأكل مع جيرانه السابقين، عائلة الدحماني.

أسفله: في كنيس دبدو، السيد كوهن أمام "التيبا"، المصطبة حيث يوضع التوراة للتلاوة. ذكرى المدينة تظل حية في أوساط العائلة.

أسفله والصفحة التالية: أسرة كوهن في لحظة تخشع ببيعة دبدو، بحضور صديقها المسلم.

لحسن الحظ، بقي في دبدو يهوديان لكل واحد منهما كنيسه! زرت الدكان الصغير لأحدهم، فبادرني بالقول بمجرد ما رآني: «أنت أحد أبناء آل زاغوري، أعرف عائلتك حق المعرفة!» دبت رعشة في جسدي، فهذا ما جئت أبحث عنه؛ وعرفت حينها أين كنت أوجد.

وانطلاقا من ذلك العام، صرت أزور المدينتين بانتظام، رحلات تُيَسرها كثيرا عائلة عزيز لقبابضي وأخته وصهره السيد الدحماني. وهذا الأخير رجل تعليم متقاعد درس في دبدو، رجل علامة ومحب للاطلاع، ورع وصادق، يستضيفنا باستمرار بحفاوة. وأظن أننا نشترك جميعا في حب هذه المنطقة.

احتجت إلى نقاش عميق وطويل مع أسرتي، مع الوالدين وإخواني وأخواتي، لكي نتفق على تنظيم حج عائلي، سنة 2011، إلى وجدة ومليلية وتاوريرت ودبدو، مدن الوالد، وكذلك إلى الرباط، مدينة طفولة الوالدة، وأيضا إلى الدار البيضاء التي عشنا فيها فترة من الزمن. زيارة دبدو بصحبة الأب شكلت متعة لا مثيل لها، بل ربما متعة طافحة؛ شاهدت رجلا لم أشاهده من قبل في ذلك الحال، مثل سمكة أعيدت إلى حوضها المائي. ومن جهتها، قالت لي أختي الكبرى، التي لم تكن تعير المغرب إلا قليلا من الاهتمام، وهي تزور دبدو: «لم أتمثل أبدا ما كانته حياة والدي ومدينته، أنا أنظر الآن وأشيد «عالما جديدا».

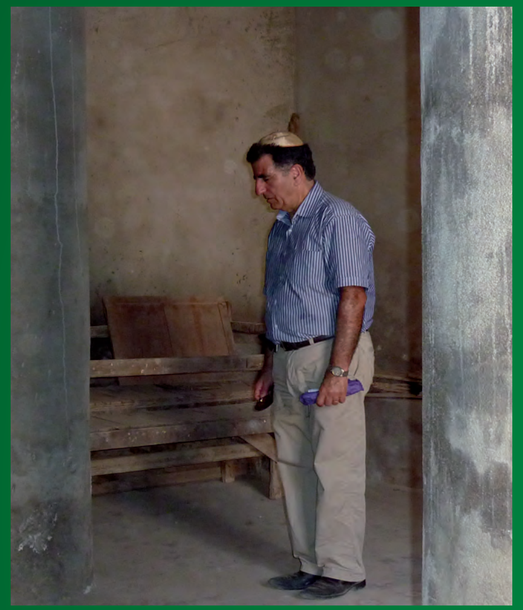

لقد أعادت لي أسفاري إلى دبدو انتمائي المزدوج، إلى عالم دبدو وعالم الرباط والدار البيضاء. ربما كان هذا هو شرقي وغربي.

ولهذا أيضا، أنا سعيد بالتفكير مع إسحاق، وجيف مارصيانو، وإيلي، وأخي مارك، وعزيز، وزهور مديرة المتحف، والدحماني وآخرين في إمكانية ترك أثر ليهود دبدو، في دبدو أو في هذا المتحف، أثر يهم عدة قرون من الحياة اليهودية، أثر من أجلنا ومن أجل الذين سيبتغون يوما، وهم في رحم البحث عن جذورهم، معرفة معطيات أكثر.»

برنار كوهن، طبيب يشتغل في باريس.
من أعمال طاولة مستديرة حول «يهود دبدو»، فاتح أبريل 2012.

اتصالات المغرب
ماكينة سينجر
THE SINGER MANFG CO

كان الأطفال المسلمون يتفادون عقوبة الضرب باللجوء عند زملائهم اليهود

«ازددت في الناظور، لكنني مداوم على زيارة دبدو، مدينة والدي وجدي. نحن من قبيلة أولاد بوزيد، والأب ولد في قصبة دبدو التي كانت تقع قرب الملاح. اشتغل موظفا في وزارة الداخلية وعين، خلال مدة معينة، قائدا على تويسيت القريبة من وجدة.

جدي، هو الآخر، ازداد وعاش في هذه المدينة، لكنه كان كثير السفر بسبب مهنته كتاجر، وكان شريكا ليهودي يدعى مارصيانو، وهو من عائلة غنية من المنطقة. وقد سنحت للجد فرصة لقاء أول وزير أول للمغرب المستقل، امبارك البكاي، أثناء زيارته لتاوريرت.

وحسب ما أتذكره من خلال زياراتي لدبدو وما رواه لي عنها أبي وجدي، فيهود هذه المنطقة كانوا يعلنون دائما أنهم مندمجون في المنطقة الشرقية. وقد روى لي عمي، الذي أقام طوال حياته في دبدو، ذات يوم حكاية دالة على الثقة التامة التي كانت سائدة، أيامها، بين الطائفتين.

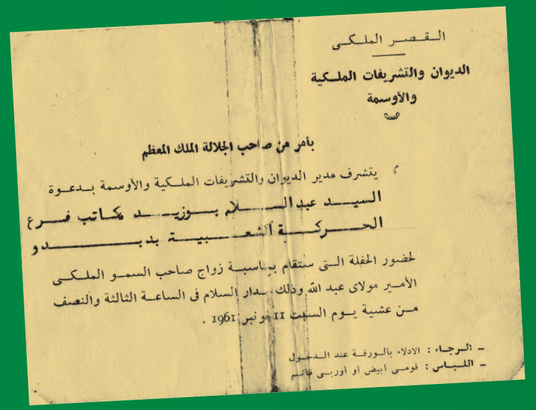

القصر الملكي

الديوان والتشريفات الملكية
والأوسمة

بأمر من صاحب الجلالة الملك المعظم

يتشرف مدير الديوان والتشريفات الملكية والأوسمة بدعوة
السيد عبد السلام بوزيد مكاتب فرع
الحركة الشعبية بدبدو
لحضور الحفلة التي ستقام بمناسبة زواج صاحب السمو الملكي
الأمير مولاي عبد الله وذلك بدار السلام في الساعة الثالثة والنصف
من عشية يوم السبت 11 يونيو 1961 .

- الرجاء : الادلاء بالورقة عند الدخول
- اللباس : فراك أبيض او اوربي قاتم

كان مسلمو منطقة دبدو يمتهنون التجارة ويحملون معهم، جراء عملهم، مبالغ مالية مهمة. ولتفادي أي تعرض للسرقة بمناسبة تنقلاتهم الكثيرة، فإنهم كانوا يودعون أموالهم، بطيبة خاطر، لدى حاخام بالمدينة، الربي الكوهن الذي كان يقوم مقام مصرفي لصالحهم، وكانوا يستردون ودائعهم منه متى شاءوا. وعلى امتداد المدة الطويلة التي استغرقها هذا التعامل، لم تحصل أية مشكلة سببها المال بين هذا الحاخام والمسلمين...

الصفحة السابقة: دعوة من القصر الملكي موجهة إلى السيد بوزيد: «بأمر من صاحب الجلالة الملك المعظم، يتشرف مدير الديوان والتشريفات الملكية والأوسمة بدعوة السيد عبد السلام بوزيد، كاتب فرع الحركة الشعبية بدبدو، لحضور الحفلة التي ستقام بمناسبة زواج صاحب السمو الملكي الأمير مولاي عبد الله، وذلك بدار السلام في الساعة الثالثة والنصف من عشية يوم السبت 11 نونبر 1961.»

وكان يعم، على مستوى آخر، جو رحب من الصداقة بين أطفال الطائفتين. وكم من المشاغبين المسلمين الصغار تفادوا عقوبة الضرب باللجوء عند رفاقهم اليهود!... وكان هؤلاء، من جهتهم، يذهبون عند أصدقائهم في بيوتهم لتناول الطعام معهم خلسة، بمباركة الآباء والأمهات المسلمين ورعايتهم... كما كانت اللغة العربية مشتركة بين الطائفتين، مع الإشارة إلى أن بعض الصغار اليهود كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب...

وابتداء من ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، شرع اليهود في مغادرة المدينة للاستقرار في وجدة أولا، وبعدها للذهاب أساسا إلى الدار البيضاء وفاس.ولم تبق في دبدو سوى خمس أو ست عائلات يهودية. بدأ الملاح يفرغ من ساكنته، وهو ما سمح للمسلمين بالإقامة فيه بدورهم، وذلك في حسن جوار مع العائلات اليهودية المتبقية.»

نزار البوزيدي، ابن امحمد البوزيدي، سليل دبدو وقائد سابق على تويسيت بمنطقة وجدة.

فكّيكْ،
الواحة الثقافية

فكّيكْ وعائلاتها اليهودية الكبرى ص.119

«جامعة القرويين الصغرى» والمتأدبون اليهود ص.120

العين تجد أخيرا أين تنتعش ص.130

فكّيك وعائلاتها اليهودية الكبرى

فكّيك، الواقعة في أقصى جنوب شرق المملكة، معجزة صغيرة وسط الصحراء. واحتها، ونخيلها، وبساتينها الفاتنة و«قصورها» العريقة تجعل منها موضعا نادرا بالمقارنة مع البيئة المحيطة بها. وهي مدينة ألفية، ذلك أن جذورها تعود إلى الشريف عبد الرحمان بن علي الودغيري، سليل الدولة الإدريسية الذي استقر بالمنطقة سنة 926، عقب سقوط حكم الأدارسة. وقد شيد ابنه، عيسى بن عبد الرحمان، «القصر» الذي سيصبح لاحقا بني ونيف. واسم قصر الوداغير، الواقع شمال فكّيك، مشتق من لقب هذه العائلة، وتقطن به إلى حد الآن أسر تقول إنها تنحدر من هذه السلالة المجيدة.

تتكون ساكنة المدينة، من جهة، من الأمازيغ الذين حلوا بها في القرن الثالث عشر والمنتمين لقبيلتي زناتة وصنهاجة، ومن عرب قبيلة بني جابر، من جهة أخرى، وهم فرع من قبيلة الهلاليين الكبرى، وذلك علاوة على الشرفاء والمرابطين.

يكشف معمار فكّيك عن تراث لامادي غني ومميز للمدينة. وهو معمار أساس بنائه الطوب والتراب، احتشدت لإنجازه مهارات وخبرات ضاربة في القدم مكنت من تحضير ومعالجة ودك هذه المواد المحلية، وذلك دون بنية داعمة أو آجر. وقد انتقلت هذه الأنماط من البناء التقليدي بالطوب والتراب وجدوع النخل المملوطة بالجير والرمل، من جيل إلى جيل. ويعتبر استعمال الطين على هذا المنوال مهارة ثقافية استثنائية، ولذا اعتمد، خلال الأعوام الأخيرة، برنامج لإعادة تأهيل التراث الثقافي لواحة فكّيك، هدفه الحفاظ على تقنيات العمل هذه، التقنيات التي منحت المدينة رونقها المعماري. وتكلل هذا العمل بتسجيل الواحة، سنة 2011، ضمن القائمة الإرشادية المؤقتة لمواقع التراث العالمي من طرف اليونسكو، وهي خطوة مهمة في أفق التصنيف النهائي ضمن قائمة التراث العالمي.

وللنساء أيضا دور لا يستهان به في مجال الصناعة التقليدية، فهن يشتغلن على النسيج والصوف، وأعمال الغزل والصباغة تنجزها نساء ورثن تقنيات المهارة القديمة، وهذا ما تقدم السطور التالية التي كتبها ليون الإفريقي، سنة 1530، عن نساء المدينة الشرقية شهادة عنه: «فكّيك عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء يحيط بها عدد كبير من النخيل. وتنسج النساء ثيابا من الصوف على شكل أغطية السرير، لكنها دقيقة رفيعة حتى يظن أنها حرير، وتباع بثمن مرتفع.» وتصادف هذه الفترة عصر ازدهار اقتصادي معتبر بالمنطقة: ذهب السودان،

كتل من الطوب والتراب يتم تجفيفها لتصبح صلبة من أجل عمليات ترميم، وشكلها مميز لنمط البناء عند الطائفة اليهودية بفكيك.

والمجوهرات، والأنسجة والملح كلها تعبر من أسواق فكيك التي كانت تعرف نشاطا تجاريا واسعا. وغدت المدينة ذائعة الصيت، على مستوى اللباس، ببرانسها، وهي معاطف صوفية واسعة تضم غطاء رأس ولا أكمام لها، وبجلابيبها وزرابيها، وكذلك «حياكها» (جمع حايك)، وهي ملابس مكونة من قطعة ثوب تستر رأس وجسم المرأة.

«جامعة القرويين الصغرى» والمتأدبون اليهود

فضلا عن المعارف الحرفية، كانت المدينة حضنا للمعرفة بشكل أساسي، ذلك أن ماضيها الثقافي زاخر؛ وستبلغ العلوم قمتها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر مع تشييد قصر المعيز على يد أحمد بن موسى. وداخل هذا القصر، سيتم بناء زاوية سيدي عبد الجبار ذات المكتبة العظيمة، «دار الأدب»، التي كانت كجامعة، يأتي إليها طلاب العلم من كل الأرجاء لدراسة العلوم والآداب القديمة والديانات. وستكتسب بعدها بقليل، على يد سيدي عبد الجبار، ابن مؤسس قصر المعيز، شهرة واسعة عبر ربوع البلاد، ما أدى إلى تلقيبها بـ«جامعة القرويين الصغرى».

وإلى حدود نهاية القرن التاسع عشر، استقبلت هذه الزاوية الطلاب من العالم العربي برمته. وتعطي الشهادة التالية لليون الإفريقي حول سكان فكيك نظرة عن المستوى الفكري العالي السائد في المدينة حينذاك: «الرجال أذكياء جدا يتعاطى بعضهم التجارة(...)، ويرحل البعض الآخر إلى فاس لدراسة الآداب.»

تخرج من الزاوية أدباء مرموقون؛ هكذا، فالتحفة الشعرية «روضة السلوان» للأديب الفكيكي إبراهيم بن عبد الجبار (نهاية القرن الخامس عشر) ترجمت إلى عدة لغات وشكلت، على امتداد قرون، المرجع العالمي في مجال أدب الصيد في الصحراء. كما ألف أبو حميد الفكيكي أول مصنف في الكيمياء باللغة العربية، وذلك بأمر من أحمد المنصور، أحد أعظم السلاطين عبر تاريخ المغرب.

وساهمت مكونات أخرى في إشعاع المدينة، إذ استقطبت منابع مياهها، بدون شك، طائفة يهودية مهمة وفدت من تافيلالت، وبلغ الأمر حد وجود «الطائفة اليهودية لفكيك» التي واصلت العيش في المدينة إلى منتصف القرن العشرين. وتدل إقامة بيعة ومقبرتين يهوديتين، مقبرة زناكة ومقبرة أولاد سليمان، وكذا تواجد ملاح، على الحضور المتواصل لهذه الطائفة في المنطقة. وإلى حدود منتصف القرن العشرين، كانت الطائفة اليهودية لفكيك تضم حوالي مائة نسمة، وتتكون بصفة

خاصة من آل أسولين، وبنشيتريت، وبنسعيد وبينتاح، إضافة إلى آل أمسلم، وقد حافظ أفرادها على علاقات وثيقة مع المدينة.

وتزخر العائلات اليهودية الفكّيكّية المنتشرة عبر العالم بالشخصيات الرفيعة. وعلى سبيل المثال، فأحد المنحدرين من آل أسولين ليس سوى الكاتب الشهير والصحفي في جريدة «لوموند»: بيير أسولين. ومن جميل صدف التاريخ، أو لعله فأل أمل، أن يكون رئيس الطائفة اليهودية بجنيف، روجي شارتييل، ومحمد موساوي، رئيس المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، منحدرين أيضا ومعا من هذه المنطقة من المغرب الشرقي.

كان يهود المدينة يمتهنون في غالبيتهم التجارة، ما يفرض عليهم نمط عيش الرحل والتنقل باستمرار إلى بني ونيف بالجزائر، بل إن بعضهم استقر هناك. ونتج عن هذا تأثير متبادل بين المدينتين اللتين لم تكن تفصلهما حدود حقبتها، وأدى القرب الكبير بينهما إلى انتشار تسمية بني ونيف- فكّيك... ولم يكن القرب بينهما جغرافيا فحسب، بل روحيا كذلك؛ وعلى سبيل المثال، فحبر من فكّيك هو من كان يدرس التوراة في بني ونيف. وبتحفيز من الربي إلياهو أمسلم، زعيم طائفة « الفكّيكّيين» الروحي، وعلى يده تجاوز إشعاع الطائفة إطار المدينة وشمل الجهة كلها، وذلك بفعل سعة معارفها، علاوة على تقيدها الصارم بالتعاليم الدينية.

وتجسد هذا الترابط الشديد، على مستوى آخر، في وجود «جِبْرا قَدِيشا» مشتركة، وكانت هذه الهيئة الدينية للسهر على الجنائز ومراسيمها تمارس مهامها لدى الطائفتين على حد سواء. وكانت الواجبات الأخيرة إزاء المتوفى تُحترم لديهما معا، وكل هذا طبقا لقواعد وفرائض الهلاخا، التشريع العبراني.

ومن جانبه، شكل يوم شَبَتْ مناسبة للقاءات السعيدة، فمع دنو هذا اليوم المقدس، كان «الفكّيكّيون» المقيمون أو العاملون في بني ونيف يسارعون إلى العودة لمدينتهم المحبوبة قصد معانقة بيوتهم وبيعتهم...

نماذج من أجزاء الوثائق البالغ عددها حوالي 130 قطعة التي اكتشفت في "كنيزا" فكّيك، سنة 2006، خلال حفريات أثرية؛ والتي تتم دراستها في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (باريس- السوربون).

إن آثار التواجد اليهودي في فكّيك منغرسة في تاريخ المدينة، وخلال حفريات أثرية أنجزت سنة 2006 بها، تم اكتشاف «كْنيزا»، قاعة محايثة للبيعة تودع فيها مخطوطات الكتب المقدسة التي لم تعد صالحة للاستعمال بسبب التآكل والقدم. وقد عثر تحت أرضية قاعة الصلاة على أكثر من مائة وثلاثين قطعة من مخطوطات ومن صفحات كتب مطبوعة؛ مصدرها مؤلفات شعائرية، ومصنفات ربية، وأحراز وكتابات سحرية، لكنها تتضمن أيضا رسائل خاصة وحسابات ووثائق. ولا شك في أن هذا الاكتشاف مصدر نادر لتاريخ الطائفة اليهودية بفكّيك من بداية القرن التاسع عشر إلى سنوات 1950. كما يؤكد عدد الوثائق المكتشفة الكبير ظاهرة اندماج الطائفة واعتمادها نمط عيش بقية الساكنة وعاداتها وتقاليدها.

ومن المظاهر الجلية لهذا الوضع، عيد الميمونة الذي كان يُحتفى به بشكل خاص. وخلاله، تكون الأزقة أكثر حركة وتنتقل مواكب تغني بين جميع البيوت، وهذه الأخيرة تعد موائد تزينها الخضرة وتوفر قطع الحلوى والشاي بالنعناع و«الماحيا». وكان اليهود والمسلمون يشاركون في هذا اليوم المميز على قدم المساواة...

العين تجد أخيرا أين تنتعش

فكّيكْ الواحة الإفريقية الأقرب لأوربا.

«بعد المنطقة جد الكئيبة للهضاب العليا، تتراءى واحة فكّيكْ كأنها تنبثق من حلم. ورغم أن التربة والحجارة تتسمان بنفس الخشونة، فالمدينة تدبر أمورها على الأقل من أجل تشكيل إطار يوحي بالعظمة، متنوع بشكل جذاب. إن وقع المنظر أخاذ، خاصة حين يُنظر إليه من ثنية اليهودية، بين جبلي زناكة وكروز.

غربا، المنحدرات العارية وشديدة الميلان لجبل لمعيز تبدو كأنها تسقط عموديا من الأعالي. وشمالا، تمتد على جبل الصفاح قمم أفقية تتلاشى الأخيرة منها في الأفق اللانهائي. مناخ ذو صفاء لا مثيل له ينتشر في هذا المنظر، حيث جميع الألوان الزرقاء والوردية تتخفف تدريجيا من فضاءاته الأقرب إلى فضاءاته الأبعد.

لكن العين تُداعبها أساسا بقعة كبيرة زرقاء تكسو عمق الباحة: إنها واحة النخيل وهي تغفو. متعبة بسبب أيام الضوء الكثيف الطويلة وانعكاساته المفرطة، تجد العين أخيرا أين تستريح وتنتعش.

الخبو الجسدي والتوتر العصبي السابقين يحتجبان فجأة؛ ويتولد إحساس رائع بالتنعم: فكّيكْ، إنها استيقاظ عذب بعد نوم مضطرب...»

بروسبير ريكار (Prosper Ricard)، من نص صدر سنة 1924 عن منشورات «هاشيت»، مع مقدمة للمارشال ليوطي.

الطوائف وفضاءات الحياة في جهة الشرق

الصفحة السابقة، ضريح الربي سعدية عداتي، الملقب بمولاي يوسف من طرف المسلمين. جنبه، منظر السواحل الإسبانية كما يظهر من داخل الضريح.

مثل المغرب الشرقي أرض استقبال فعلية للطائفة اليهودية المغربية. وإضافة إلى المراكز المهمة، هناك فضاءات أخرى احتضنت ميلاد وحياة ووفاة أجيال وعائلات.

ومن كل أنحاء العالم، لا يزال أقرباء هؤلاء يزورون تلك الفضاءات للتذكر ونقل الذاكرة اليهودية للمغرب الشرقي للغير حتى تظل حية.

الناظور

الناظور، المدينة المتوسطية البهية الواقعة على ضفة بحيرة مارتشيكا الشاسعة، تتمتع بموقع جغرافي متميز إزاء إسبانيا القريبة جدا منها. ويعرف ميناؤها، ميناء ابني انصار، نموا اقتصاديا من شأنه أن يبوئه مكانة عالمية.

واضعة المستقبل نصب أعينها، تزخر الناظور أيضا بتاريخها الثقافي، حيث إنها استقبلت، على طول أجيال، سكانا يهودا قدموا لاسيما من إسبانيا. ولم تتعرض هذه الذاكرة للنسيان، كما يشهد على ذلك إحياء الهيلولا الذي أقيم في ماي 2010 بالمدينة. وقد حضر أكثر من مائتين وعشرين زائرا من ثغر مليلية لإحياء ذكرى الربي سعدية عداتي، الذي يلقبه المسلمون مولاي يوسف ويقدسونه هم الآخرين...

عين بني مطهر

تقع عين بني مطهر، وتسمى أيضا برگم، على بعد ثمانين كيلومترا جنوب وجدة، وهي مدينة تشتهر بلحم غنمها «بني كْيل»، إضافة إلى جودة صوفه. إنها مدينة صغيرة بدون مشاكل... لكنها ذات تاريخ. ففي غمار الحرب العالمية الثانية، استغلت برگم كمركز اعتقال كان عدد السجناء يرتفع فيه إلى أربعمائة معتقل، جميعهم من اليهود المُرسَلين من أوربا. وبمناسبة ندوة نظمت سنة 2010، سجل جامع بيضا، مدير مؤسسة أرشيف المغرب، ما يلي:

«صار من المعروف أن الحرب العالمية الثانية كانت بمثابة كابوس بالنسبة ليهود أوربا. لكن ما ليس معروفا هو أن المئات منهم أجبروا على «البحث عن ملجأ» في إفريقيا الشمالية، وخاصة في المغرب، حاملين معهم أمل العبور إلى بلدان استقبال في أمريكا الشمالية أو كندا. وفيلم «كازابلانكا»

عين بني مطهر، أو برگم، ترك فيها التاريخ أثرا حزينا، رغم أن سكانها خففوا من عذابات السجناء.

الأمريكي، المنتج سنة 1942 والذي يلعب فيه أدوار البطولة همفري بوغارت وإنغريد برغمان، يُلَمح، بطريقة خيالية هوليودية، إلى هذا الواقع. (...) وحسب المعلومات المتوفرة، فبرگم كانت معسكر الاعتقال الوحيد على التراب المغربي المخصص ليهود أوربا دون غيرهم. ويشير تقرير للصليب الأحمر الدولي، على مستوى آخر، أن السجناء كانوا، لأداء الشعائر الدينية، يستفيدون من خدمات ثلاثة حاخامات تابعين، على التوالي، للطائفة اليهودية بالمنطقة وطائفتي فكْيك ودبدو.»

سادت شروط قاسية في معسكرات الأشغال الشاقة بسبب سياسة حكومة فيشي، لأنها كانت تحت سلطة الإقامة العامة. أما الساكنة المسلمة، فاتسم سلوكها بحسن الاستقبال والمساعدة حسب ما تسمح به إمكانياتها. في مؤلفه العلمي «بين الشرفاء»، الذي صنفته «واشنطن بوست» ضمن الكتب الأكثر رواجا سنة 2006، يستشهد المؤرخ الأمريكي روبرت ساتلوف (Robert Satloff) بـ«تقرير يعكس كثيرا من أعمال التعذيب الوحشي التي تعرض لها السجناء اليهود المساكين (...) حيث ومضات التعاطف الإنساني الوحيدة كانت تصدر عن الحراس العرب.» ويجدر التأكيد على أن لا أحد من المغاربة اليهود أُبعد إلى أحد هذه المعسكرات أو معسكرات الإبادة الجماعية بفضل معارضة السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه.

بركـان

تثبت شـواهد القبور في بركان الوجود اليهودي الطويل بهذه المدينة الحاملـة أيضـا لاسـم سـيدي محمـد أبـركان. ففي عين المكان، شـمال جبـال بني يزناسـن، عاشـت عائلات يهودية إلى حـدود النصف الثاني مـن القـرن العشريـن. وكان أفرادهـا يمارسـون، في غالبيـة الأوقـات، مهنـا حـرة مثـل الطب، مـا يؤكد مسـتواهم الـدراسي العالي.

وحتـى حـدود أعوام 1970، كان المـرء يصادف تجارا يهـودا متجولين، يجوبـون البـوادي لشراء وبيـع مجوهرات من الفضـة المصمتة، وهي تجـارة تقليديـة ورثوها أبـا عن جد...

ذاكرة دائمة
الحياة في
القلـوب.

الصفحة السابقة والصورة جنبه:
بيعة أحفير المهيبة.

أسفله: في المقبرة اليهودية، ترقد أرواح أفراد بارزين من الطائفة في سلام.

أحفير، مدينة صغيرة، تعايش رحيب

تتسم أحفير بتقاليد متأصلة للاختلاط الثقافي. واقعة قرب إسبانيا والجزائر، احتضنت هذه المدينة الصغيرة، الموجودة في أقصى شمال شرق المملكة، طائفة يهودية طوال مدة زمنية ليست بالوجيزة، طائفة تعايشت مع بقية السكان من المسلمين، وحتى من المسيحيين كذلك. كان الاحترام المتبادل يسودها، بل تكتنفها لذة العيش، إذ كثيرة كانت اللقاءات الحميمة الملتئمة في البيوت بالقرب من مقبرة حي عواطف اليهودية. وفي كثير من الأحيان، كانت رقصة الركّادة، الرقصة التقليدية لبني يزناسن، تؤثث بإيقاعاتها أمسيات السكان، الأمسيات غير الهادئة كما قد يعتقد البعض...

وفي أحفير، لا يتعرض أحد للنسيان، حيث كان المسيحيون والمسلمون يتوفرون هم أيضا على مقبرة لكل طائفة. أما البيعة، فكانت نادرة الجمال، تشهد بوابتها المهيبة على أبهة البناية الدالة على الحضور المعتبر للطائفة اليهودية.

وتتوافد، إلى الآن، جموع من العبريين على المدينة مسقط رأسهم لزيارتها، ولاسيما الكنيس القديم الذي يجاور حاليا مسجدا، وهو جوار لا يخلو من رمزية. وتفتح هذه الزيارات الأبواب لاستحضار ماض عريق ينتقل من جيل إلى جيل، تظل أحفير الشاهدة الوفية عليه.

جنبه: سنة 1927، تلاميذ يهود في أقسام الحضانة والابتدائي بتاوريرت.

أسفله: المدرسة اليهودية السابقة حاليا.

الصفحة التالية: سنة 2011، بعد أربعين سنة على المغادرة، السيد كوهن يعود إلى تاوريرت، مسقط رأسه.

تـاوريـرت

غـرب وجـدة، توجـد تاوريـرت وقصبتهـا الشـهيرة، قصبـة مـولاي إسـماعيل، وهـي تتربـع عـلى هضبـة رائعـة يجـري في سـفحها واد زا. وقـد تبـوأت، بصفتهـا مدينـة تاريخيـة، مكانـة مهمـة في الـذود عـن المملكـة. وفي القرنـين الثالـث عـشر والرابـع عـشر، شـكلت قصبتهـا، التـي هـي حصـن عسـكري منيـع، مركـزا اسـتراتيجيا في سـياق الـصراع القائـم آنـذاك بـين الدولـة المرينيـة والدولـة الزيانيـة في تلمسـان. وعقبهـا، في نهايـة القـرن السـابع عـشر، سـتعرف التجديـد مـن طـرف السـلطان مـولاي إسـماعيل.

وكانـت المدينـة كذلـك مركـزا تجاريـا هامـا، نظـرا لموقعهـا الجغـرافي المتميـز في مفـترق الطـرق التاريخيـة الرابطـة بـين سجلماسـة وأوربـا مـن جهـة، وبـين تلمسـان وفـاس مـن جهـة أخـرى. هـذا الموقـع الملائـم جـذب إليـه طائفـة يهوديـة تعايشـت، خلـف أسـوار القصبـة، مـع السـاكنة المسـلمة، وكذلـك المسـيحية. وحتـى منتصـف القـرن العشريـن، ضمـت تاوريـرت مدرسـة يهوديـة وأخـرى أوربيـة. وكان بهـا، إضافـة إلى هـذا، حـي تجـاري رائـج السـلع، خاصـة في زنقـة تجـار الأثـواب، حيـث كان يمـارس عـدد مـن التجـار والـوكلاء اليهـود حرفهـم. وكان الـرواج يعـم هـذه الزنقـة يـوم الأحـد خاصـة، وهـو موعـد انعقـاد السـوق الـذي يـأتي إليـه سـكان البـوادي المجـاورة المسـلمين قصـد التسـوق واغتنـام الفرصـة للاختـلاط مـع أفـراد الطوائـف الأخـرى...

العيون سيدي ملوك

تنتمي العيون سيدي ملوك لإقليم تاوريرت وتمتد على المنخفض الحامل لتسميتها؛ وهي جماعة ترابية جميلة قريبة من البحر الأبيض المتوسط. وتشتهر المدينة أيضا باسم العيون الشرقية لتفادي الخلط بينها وبين نظيرتها المنتمية للصحراء المغربية. أسست هذه المدينة الشرقية في 1679 في عهد السلطان مولاي إسماعيل، وهي تضم قصبة بديعة تعتبر معلمة تاريخية بكل ما يحمله الوصف من معنى.

وبما أن بعض الطوائف كانت تفضل الحياة بعيدا عن المراكز الكبرى، فإنها اختارت العيش هنا وبقيت في عين المكان إلى منتصف القرن العشرين. وقد تعاطى أفرادها حرف الصناعة التقليدية، وعلى وجه الخصوص صياغة المعادن الثمينة والاتجار فيها.

ثقافات مشتركة

كان اليهود والمسلمون يتقاسمون نفس الانشغالات اليومية، يواجهون ذات الصعوبات المرتبطة بالمناخ والمحصول الزراعي والنقود... وتولدت عن هذا التقارب تصورات ذهنية متماثلة : فالثقافة تشكل أحسن نموذج لها.

الشعر العربي والأمازيغي، «القصة» و«الملحون»، المقطوعات العربية الكلاسيكية، الموسيقى الأندلسية ومختلف أصناف موسيقى «اللحن»، جميعها حاضرة ضمن الإبداع الشعري اليهودي، حتى في الملاحات الأكثر بعدا في الأطلس الصغير. لقد كان يتم تلحين وغناء قطع من جنس المحاكاة الساخرة والبكائيات، ونظم أشعار مقتبسة في ذات الآن من التقاليد الشعرية العربية واليهودية. وكانت الروايات المستقاة من الكتاب المقدس تغتني بإدخال نسيج من الأحداث في متنها، تمتزج فيها الأساطير اليهودية مع «القصص» (الحكايات) الإسلامية؛ وكانت «قصائد» شعراء مسلمين توظف من قبل نظرائهم من الطائفة الأخرى... وتؤكد اللغة المستعملة، التي هي نواة كل حضارة، القرب بين الثقافتين؛ وفي دبدو، مثلما هو الحال في وجدة أو الناظور، كانت الطائفتان تستعملان الدارجة والأمازيغية، وهذا معطى تابث منذ وقت بعيد.

وعلى امتداد القرون وتعاقب الأجيال، تطور لدى اليهود الناطقين بالأمازيغية أدب شفوي تقليدي ثري. وبالفعل، فهذه اللغة كانت إحدى اللغات المحلية الأساسية للطوائف المستقرة في جبال الأطلس الصغير المغربية؛ تستعمل أداة للتواصل الشفوي اليهودي اليومي داخل الوسط الأسري والاجتماعي والاقتصادي، علاوة على كونها جسرا لنسج العلاقات مع الطوائف الأخرى. وكانت الأمازيغية، ومعها العبرية، لسان الثقافة والتعليم التقليدي، توظف في تفسير وترجمة النصوص المقدسة، وذلك إلى درجة أن بعض الصلوات، ومنها صلاة مباركة التوراة، كانت ترتل أحيانا بالأمازيغية وحدها كما تقر ذلك شعائر عيد الفصح (بيساح). ومثل الإرث الأندلسي الذي تبلور في العصر الذهبي الإسباني- المغاربي، مصدر إلهام فعلي للشعراء اليهود الذين اغترفوا منه القوالب والنحو والعلوم اللغوية، أو، بصيغة أخرى، قواعد الأدب العربي. وكانت طوائف السفارديم الشرقية جد مولعة بهذا الموروث.

إن الارتباط الراسخ طيلة قرون بين الأندلس والمغرب الأقصى، والذكريات التي ظلت عالقة بالأذهان ومذكرة بحقبة الازدهار الفكري تلك، عاملان يكمنان خلف الترابط بين الأدبين اليهودي والإسلامي، الأدبين اللذين بقيا وفيين للماضي الأندلسي الذي خلق النموذج الشعري الإسباني- العربي. هكذا، أثرت البيئة الاجتماعية الثقافية الإسلامية كثيرا على الإنتاج الشعري اليهودي. وبفضل الاحتكاك مع الشعر العربي، عرف الشعر العبري تحولا؛ ومنذ القرون الوسطى، تغيرت تقنيات نظمه وأصبح عروضه الجديد مماثلا للعروض العربي الذي اعتمد

شعراء العربية أشكاله وتقنياته. ويتعلق الأمر، في هذا المقام، باقتباسات جوهرية قام بها الشعراء والشداة اليهود من النموذج الغنائي العربي-الأندلسي الكلاسيكي لـ «القصيدة» و«الملحون». هكذا إذن، وبهدوء، ولج الشعر والموسيقى العربيين إلى الكنيس وشعائره.
وتجسد «قصة سيدنا أيوب» دليلا ساطعا على تماثل البنيات الفكرية اليهودية والمسلمة.

«قصة سيدنا أيوب»

إذا كانت شخصية أيوب تحتل مكانة محورية في الأدب اليهودي التوراتي، فإنها وردت كذلك في بعض الآيات القرآنية التي أفاض المفسرون المسلمون في تناولها، مستوحين الكثير من الأخبار العجيبة حولها من الكتابات الربية.

وتوجد رواية يهودية-عربية لقصة أيوب، وهي مستوحاة من الأدب اليهودي ومن التقاليد المحلية والعربية الإسلامية كليهما. ويعرض النص اليهودي- العربي على التوالي شخصية أيوب الأسطورية، نموذج الأمير البدوي، والحملة التي قادها الشيطان ضد هذا الحكيم، وشخصية رحمة، الزوجة الوفية والمتفانية، وآلام أيوب وتدخل أصدقائه. وها هي بعض ملامح شخصية رحمة التي لم يرد ذكرها في التوراة:

«رَحْمَه زُوجْتُو هِيَ مُولَاتْ الْحَسَبْ
(رحمة، زوجته هي ذات الحسب)
تَخْدَمْ بْلُجْرَا وَتْجِيبْ لَحْطَبْ
(تعمل بأجرة وتأتي بالحطب)
وَتْضَلْ تْشَاشِي عْلَى بْنَاتْ لَعْرَبْ
(وتظل تستعطف بنات العرب)
مَرَّه تَنْذَلْ وُمَرَّه تَنْحَقَرْ
(مرة تذل ومرة تحتقر)
نَضْرُهَا دَخْلَتْ وُهِيَ تَضْوِي كِيفْ ضِي لَهْلَالْ
(رأوها دخلت وهي تضيء ضي الهلال)
قَالَتْ وَحْدَه مَنْهُمْ وَاشْ هَذْ لَكْمَالْ
(قالت إحداهن ما هذا الكمال؟)
لَوْ كَانَ تْبِيعْ لِي شْوِيَ مَنْ ذَاكْ ادْلَالْ
(لو بعت لي إحدى هذه الظفائر)
نَعْطِيكْ خَبزَة وَصَاعْ مَنْ التُّمَرْ
(أعطيك خبزا وصاعا من التمر)
يَا حَسْرَا قْطَعْتْ ذَاكْ الشَّعَرْ لَمْخَالْفْ
(واحسرتاه، لقد قصت ذلك الشعر الكثيف)
قَطْعُوه دُوكْ انْسَا وعَمْلُوهْ سْوَالَفْ
(أولئك النساء قصصنه واتخذن منه ظفائر)
عَمْلُوهْ فْ رُوسْهُمْ مَا بَا يْوَالَفْ
(وضعنه فوق رؤوسهن فأبى أن يستقر)
وُصَارْ يِطِيرْ كْمَثْلْ لَطْيَارْ
(وأخذ يطير مثل الطيور)».

الكتاب المقدس السرياني لباريس (القرن السادس أو السابع، المكتبة الوطنية لفرنسا). تشتمل هذه المنمنمة المثبتة في الصفحة السابقة لـ "سفر أيوب" على عدة مشاهد. يظهر أيوب عاريا على كومة الروث، وجسمه تكسوه الجراح؛ ويسارا، أصحابه الثلاثة؛ وفي الأسفل، زوجته وهي تتحدث إليه.

وتضئ شهادة الشاعر المغربي اليهودي رفائيل موسى الباز، وهو من شعراء القرن التاسع عشر، هذا القرب بين الثقافتين والديانتين. يكتب الشاعر في مقدمة مؤلفه «شير حاداش» (أغنية جديدة):

«بعد أن داهمتنا النكبة الفاجعة (تحطيم هيكل القدس) تكفيرا عن خطايانا، وبعدما خرست ربات الشعر لما حل بها من ألم وعاد الإلهام إلى الرب الذي أوحى به، أخذ حكماء الأندلس يبدعون فنونا من الشعر جديدة وينظمون القصائد والمقطوعات، وكانوا بذلك من الناظمين البارعين، وقد استسلموا للأمر الواقع وما تفرضه المعايير العروضية وكل ما تقتضيه القواعد التي يتطلبها النحو والمنطق، مستجيبين لمتطلبات صنعة الشعر كما وصفها العرب... فأغنوا بذلك شعر طقوسنا...»

ورغم بعض الاختلافات التي لا سبيل لإنكارها، علاوة على أنها كانت تشكل مصدر غنى لكل واحدة من الطائفتين، فإن انسجاما فعليا كان يطبع هذه البيئة.
لقد كانت الثقافة اليهودية، بصيغة أخرى، الشكل الآخر، الأنا الآخر للثقافة العربية الإسلامية.

في القرن التاسع عشر، خاض التيار الفني الشهير، تيار الاستشراق، في الصورة الأسطورية لـ «اليهودي الشرقي»، واهتم الغرب، المنجذب إلى الأمكنة الأخرى والإغراب، بطوائف الضفة الأخرى للبحر المتوسط. كان الكنيس، والمقبرة، وشَبَت، والرقصات، وتنوع الملابس وأبهة الاحتفالات تبهر الأوربيين الساعين خلف اكتشافات غير مسبوقة؛ معجبين كانوا بهؤلاء النساء والرجال المتخلصين من الأحكام المسبقة والذين عرفوا كيف يربطون حوارا حميما مع الثقافات الإسلامية المجاورة لهم.

وطوال القرن التاسع عشر، توافد المستكشفون والإثنوغرافيون لاكتشاف هذه الطوائف التي تنتشر وتعيش وسط الأمازيغ. ومثلت

أعمالهم مصدرا للمعلومات بالنسبة لليهود الأوربيين أنفسهم الذين كانوا يجهلون حتى وجود أبناء ملتهم هؤلاء ذوي التقاليد الضاربة في القدم... وخير دليل على جاذبية الشرق هذه، تعكسه تحفة أوجين ديلاكروا الفنية: «زفاف يهودي»...

في 21 فبراير 1832، حضر أوجين ديلاكروا زفافا يهوديا في المغرب. وقد شخص الرسام بشكل مؤثر هذا الاحتفال اليهودي الموريسكي، ولم يفته تشخيص الضيوف المسلمين. ©DR

الأعياد اليهودية والجيران المسلمون

إذا كان المجال الثقافي يوضح بجلاء التقارب بين الطائفتين اليهودية والمسلمة، فإن الشأن الديني ينهج نفس المنحى. إن حقل الإيمان المميز والحساس إلى أقصى درجة شكل، هو الآخر، مجالا عميقا للتلاقي، ولا أدل على هذا أبلغ من الأعياد اليهودية التي كانت الساكنة المسلمة تعرف مواعيدها كذلك... بل إن بعض الأعياد ستكون خاصية يهودية مغربية يحتفل بها في المغرب دون غيره من البلدان.

عيد الفصح اليهودي

يحتفل بيساح، أو عيد الفصح اليهودي، بخروج بني إسرائيل من مصر وخلاصهم من الطغيان الفرعوني. ويتم إحياء ذكرى هذا الحدث الرئيسي في التاريخ اليهودي من خلال طقوس شعائرية جوهرية، منها لاسيما تلاوة «الهَكّادَه» التي هي قصة الخروج من مصر. وجرت العادة في المغرب أن يُتْلى بالعربية المقطع المتعلق بانفلاق مياه البحر الأحمر:

«هكذا فلق الله البحر اثني عشر مسلكا، عندما خرج أجدادنا من مصر، تحت زعامة سيدنا ونبينا موسى نسل إبراهيم، عندما انتقذهم وخلصهم من الأعمال الشاقة وحررهم، وهكذا سينقذنا ويخلصنا من هذا النفي حبا في اسمه الجليل والجلل.»

أهم الأعياد اليهودية

رُوش هَشَانا: يحتفي بالسنة العبرية المدنية الجديدة في التقويم اليهودي، ويعتمد هذا التقويم على دورتي الشمس والقمر، وهو محكوم بموقع القمر والشمس والأرض.

بيساح والاحتفال باختتامه، **ميمونة:** بيساح أو عيد الفصح اليهودي يحيي انعتاق الشعب اليهودي من الطغيان الفرعوني. وهو أحد أعياد الحج الثلاثة التي نصت عليها التوراة مع شَفْعُوت وسُكُّوت. ويختتم هذا العيد بإحياء يوم مشهود يعتبر خاصية محضة لليهودية المغربية: الميمونة.

شَفْعُوت: عيد العنصرة اليهودي، ويخلد نزول التوراة.

سُكُّوت: عيد المظلات، ويذكر بالفترة التي قضاها العبرانيون تحت الأكواخ والخيام المصنوعة من أغصان الأشجار خلال مسيرتهم عبر الصحراء. وهكذا، فهذا العيد يمجد الحماية التي يتمتع بها هذا الشعب من قبل الإله.

حنوكة: يخلد الانتصار على الجيش الإغريقي الذي غزا أرض إسرائيل في حقبة الهيكل الثاني، بعد تقسيم إمبراطورية الإسكندر الأكبر.

بوريم: يخلد التدخل الحاسم للملكة أستير التي أنقذت اليهود من مؤامرة دبرها هامان، المستشار القوي لملك الفرس.

هيلولا: إحياء ذكرى وفاة أولياء صالحين يهود مشاهير، على غرار «مواسم» المسلمين.

ومن الجدير بالتسجيل، في هذا المقام، معطى لافت للنظر يبرهن على مدى التمثل التام لهذه الطائفة بالمنطقة التي استقبلتها، ألا وهو وجود نسخة كاملة من «الهَكّاده» بالأمازيغية، وهي ترجمة تقليدية للنص العبري، مثلما هو الحال بالنسبة لترجماته إلى اليهودية- العربية أو القشتالية القديمة. ويقدم هذا التأليف مفتاحا أساسيا لمعرفة التقاليد اللسانية والثقافية للطائفة، مثلما تبرز صياغته وتلاوته بالأمازيغية بمناسبة إحدى أهم الشعائر الدينية أن هذه اللغة كانت الحامل الأساس للثقافة اليهودية- المغاربية. وندرج أسفله الترجمة العربية لمقتطفات من هذا النص الشعائري الذي جمّعه حاييم الزعفراني وبوليت غلاند- بِرْني والذي يحتوي على معلومات مهمة حول العذاب الذي اصطلى به هذا الشعب.

«سراعا خرجنا من مصر.
وبالنسبة للخبز، فغير مختمر كان الذي أكله
أجدادنا في مصر. ليأت المعوز
إلى تناول الأكل، وليأت العطشان
للشرب! هذا العام ما زلنا في هذا البلد؛
العام القادم موعدنا بالأرض المقدسة.

بماذا تتميز هذه الليلة عن الليالي الأخرى؟
في جميع الليالي الأخرى، ليس من عادتنا أكل المغموس،
لا نفعل ذلك أبدا،
وفي هذه الليلة نغمس مرتين.

في جميع الليالي الأخرى، عادتنا أن نأكل كل شيء
المختمر وغير المختمر، وهذه الليلة، غير المختمر.

في جميع الليالي الأخرى، لنا عادة أن نأكل ونشرب إما جالسين،
أو متكئين، وفي هذه الليلة، نفعل ذلك جالسين جميعا.
في جميع الليالي الأخرى، لنا عادة أن نأكل ما نجد؛
خضر في غالب الأحيان، وفي هذه الليلة، نأكل ما هو مر.

عبيد فرعون، هذا ما كناه في مصر. فأخرجنا منها،
ربنا، بذراع قوي، بذراع صلب.لو لم يُخرج الرب، من أجلنا، آباءنا...

من مصر، لكنا بقينا هناك، نحن وأطفالنا،
عبيدا لفرعون مصر.
حتى ونحن نمتلك الذكاء والبصيرة،
حتى ونحن نعرف التوراة، يجب علينا أن نردد
ما يتعلق بالخروج من مصر. كل من ركم حكايات
الخروج من مصر، كما ترى، جدير بالثناء.»

وبمناسبة بيساح، يلزم التقيد بعدد من القواعد والتعليمات: إعداد الفطائر بعناية فائقة قبل أن تظهر عليها أية علامة للتخمر، وطلاء الجدران بالجير، وغسل الأبواب والنوافذ وتغيير أدوات المطبخ بأخرى لتكون كلها جديدة حين حلول لحظة «ليلة السّدِر» الجليلة، الطقس الفِصْحيّ الذي يتم خلاله ترسيخ التعاليم المرتبطة بـ«معجزة الخروج من مصر» في أذهان الأطفال. ويختتم عيد الفصح اليهودي لدى الطوائف المغربية باحتفال يجسد حيزا تكافليا يلتقي ضمنه اليهود والمسلمون: ميمونة.

خلال ميمونة، لا شيء أفضل من خبز المسلمين

وبالفعل، فـ «لا ميمونة» كانت ولية يتضرع إليها الفريقان الدينيان الجاران معا، توزع الخصب والنجاح والسعادة والرخاء. والعيد الذي يحمل اسمها خاص بالبيئة المغربية، يشهد على الارتباط الوثيق الذي يجمع الطائفتين اليهودية والمسلمة.

لاختتام عيد الفصح وبعده التذكاري بخلاص الشعب اليهودي، كانت العادة تقضي بالاحتفاء بالجديد والخلق الجديد للعالم؛ إذ من الواجب، بعد الِانعتاق من أهوال وعذاب العبودية لدى الفراعنة،

الاحتفال بعالم مختلف ترتبط به السعادة والرخاء. والمسلمون يشكلون الشركاء المميزين لإحياء ميمونة.

في المغرب، جرت العادة المتأصلة النابعة من الجوار أن يكون أول رغيف يلج البيت عقب بيساح هدية من الجيران المسلمين. وتكون ليلة ميمونة استثنائية بكل المقاييس: البيوت مزينة بالخضرة والموائد ممونة بسخاء باللبن والحليب ومشتقاتهما، والسمك، وسنابل الشعير والقمح والزيت الصافي... مأكولات يتقاسمها المسلمون مع جيرانهم اليهود. وكانت المنازل تفتح أبوابها على مصراعيها لاستقبال الأقارب والأصدقاء والجيران بغض النظر عن أصولهم...

أما شعيرة إعادة خلق العالم والبدء فيرمز إليها بإعداد عجين مخمر جديد، «لَخْمِيرَه»، يوضع في قصعة من طين، ويضع كل فرد يده في العجين، راميا فيه قطعة حلي صغيرة أو ذهب أو فضة، وذلك بينما

مبـــاركـــة

الأسر اليهوديـة لم تنـس المملكـة. في الصـورة جنبـه الملتقطة سـنة 2011، إسـحاق كوهن، الذي عاد إلى مسـقط رأسـه بعد غياب دام أكـثر مـن أربعين سـنة، يبـارك زوجته بمناسـبة الميمونـة، الاحتفال جـد المميز والخـاص باليهوديـة المغربية.
ويتـم إحيـاء هـذه العـادة في جميـع مناطـق العـالم حيث يسـتقر يهـود مغاربـة، والصـورة نمـوذج حـي لهـذا الواقع.

الصورة جنبه: عين دبدو، بداية القرن العشرين.

الصفحة التالية: تقتضي عادة الجوار في المغرب أن يكون أول خبز يلج البيوت اليهودية خلال الميمونة هدية من الجيران المسلمين.

الرجال يرددون تراتيل بالعبرية أو العربية أو القشتالية أو الأمازيغية بلا تمييز بين اللغات... وفي الخارج، كان من التقاليد تنظيم كرنفالات، وخلالها، كان بعض اليهود يتنكرون في لباس عربي ويتبخترون في مشيتهم مرتدين الطربوش أو «الشاشية» الحمراء والجلباب، وكذلك البلغة...

وتتوالى الاحتفالات إلى آخر الليل... لتتواصل في اليوم الموالي عبر النزهات في البوادي، وتناول الوجبات فوق العشب والنزول إلى البحر، وخاصة التوقف الشعائري قرب عين ماء أو آبار أو جداول. وبخصوص طقوس الماء، مثل الشرب والاستحمام، فهي متشابهة لدى العقيدتين، بل إن المسلمين يذهبون إلى حد الاعتقاد بأن توقف اليهود في منابع المياه علامة على «البركة»، وضمانا لسنة ممطرة ومحصول زراعي وافر. ولذا، كان اليهود يُدْعَون لزيارة ضيع أصدقائهم وجيرانهم المسلمين لإحياء نزهاتهم فيها والشرب.

وتتخذ الأهمية التي توليها الديانتان للمنابع بعدا تقديسيا حين يتعلق الأمر بمياه الأماكن المقدسة؛ إذ يتم الاستحمام فيها أو شربها قصد التداوي من الأمراض أو تطهير الجسد. وعين سيدي يحيى، التي تزود وجدة بالمياه وينطلق مجراها من على بعد خمسة كيلومترات عن المدينة، تحمل اسم الولي الصالح الذي فجر نبعها: الربي يحيى بن دوسة، حاخام إسباني وفد إلى المغرب في القرن الرابع عشر، ويروى أن المياه انبثقت حين قام بحفر الأرض بحثا عن الماء الضروري لوضوئه الأخير.

وزيادة على طابعه التاريخي، يتسم هذا الاحتفاء بطابع محلي. وتترجم ميمونة إرادة الطائفة الاندماج في المحيط المغربي الذي احتضنها منذ قبل من ألفي سنة. وهي عامل اندماج وتنشئة اجتماعية لا مكان في سياقه لأي تمييز إثني أو ديني، يدل على التكافل الفريد والتعايش

المنسجم القائمين في أرض المغرب. وحظي هذا العيد المحلي المتفرد بمصير لافت للنظر، ذلك أن الهجرات اليهودية المغربية حملته معها إلى أماكن استقرارها الجديدة، فأصبح يحتفل به في جميع بقاع العالم، وفي إسرائيل كذلك حيث اكتسب طابع العيد الوطني...

شَفْعُوت، عيد نزول التوراة

يحل عيد العنصرة اليهودي، شَفْعُوت، في اليوم السادس من شهر سيوان في التقويم اليهودي الذي يوافق، حسب السنوات، شهري ماي أو يونيو في التقويم الميلادي. وهو يحتفل بنزول التوراة وتجلي الإله على طور سيناء، وبالعهد الروحاني المعقود بين الرب وطائفة بني إسرائيل.

خلال الليلة الأولى من هذا العيد المسماة « لِيلَةْ لَقْرَايَا»، تتم قراءة «تِقُّونْ»، وهو طقس خاص واحتفال بصيرورة إعادة بناء التناسق العلوي؛ وتقرأ نصوص مختارة من العهد القديم، ومن «المنشا» و«الزهار»، وترتل الأناشيد أيضا في البيعة. ويجسد هذا أحد مظاهر تأثير القبالة ومدرسة إسحق لوريا على الطوائف المغاربية، تأثير يمتزج بالعادات والأعراف التي نشأت في الحلقات الفلسطينية بصفد.

ويصادف اليوم الأول من «شَفْعُوت» اليوم الموالي لليلة «تِقُّونْ». ويميزه طقس لا يخلو من شحنة رمزية، قراءة «الكتوبة» (عقد الزواج) طبقا للأصول المذكورة في التشريع الربي، عقد يحدد صيغ وشروط القران والواجبات المتبادلة بين الزوجين. وهكذا، فهذا الطقس يحتفي بالاتحاد الروحي بين الإله وبني إسرائيل. وكانت المقطوعات الشعرية الصوفية الخاصة بـ «شَفْعُوت» كثيرا ما تحيل على الزواج الرمزي، زواج «الْحَتَن» (العريس) الإله، و«العذراء إسرائيل»... وكانت النصوص من هذا الصنف شائعة في مكتبات كل متأدبي المغرب الكبير. وفي المغرب، كانت تلاوة «كِتُّوبُوت» (عقود) مماثلة تتواصل إلى اليوم الثاني من هذا العيد.

وفي سياق الاحتفال بهذا العيد، تتكرر الطقوس الشعبية الخاصة بالماء، الشبيهة بطقوس ميمونة، والتي تتزامن مع طقوس مماثلة يعرفها المحيط المغربي الإسلامي. ويتعلق الأمر بالاحتفال بـ«الْعَنْصَرَه»، عيد انقلاب الشمس الذي يطبع نهاية الموسم الفلاحي وبداية فصل الصيف. ويحتل الرش بالماء والاستحمام مكانة معتبرة ضمن احتفالات «الْعَنْصَرَه» هذه...

يـوم كيبّـور

يـوم هاكيبوريـم بالعبريـة، «يـوم الكفـارة» أو عيـد الغفـران، وهـو من أهـم الأعيـاد على الإطلاق ومن أكثرها تقديسـا ضمـن التقويم اليهودي. وإذا كان اليهـود يحتفلـون بـه في اليـوم العـاشر مـن شـهر تـشري عـبر ربـوع العـالم بـأسره، فإنـه يجسـد اليوم المتمـم لأيـام التوبة التـي تدوم 10 أو 15 يومـا (حسـب تزامنهـا مـع روش هشـانا أو شـهر إيلـول).

ومـن التقاليـد الراسـخة لـدى الطائفـة اليهوديـة المغربيـة أن تـؤدي الصلـوات والأدعيـة للعائلـة الملكيـة بمناسـبة إحيـاء يـوم كيبـور. ويـبرز العطـف الخـاص الـذي يوليـه العـرش العلـوي للطائفـة بتزامـن مـع احتفـالات هـذا العيـد في كثـير مـن الأحيـان، كـما في مناسـبات أخـرى.

ويتسـم العيـد بكونـه يـوم عطلـة كاملـة، وبالصيـام، وإقامـة خمـس صلـوات، وأداء أناشـيد شـعائرية، والاسـتغفار، عـلاوة عـلى عـادات وطقـوس أخـرى ترتبـط بحظـر المتـع.

«يبدأ صيام كيبور قبل غروب الشـمس ويسـتمر إلى ما بعد غروب شمس اليـوم المـوالي. وبمناسـبة هذا العيد، نتقيد بإقامة طقـس «كاباروت»، الذي يقتـضي، أيامـا من قبل، ذبح دواجن يبلغ عددهـا عدد أفراد الأسرة.

ويخصـص ديـك بالنسـبة للرجـال ودجاجـة بالنسـبة للنسـاء. ويقـوم الحاخـام، وهـو يتلـو صـلاة محـددة، بالتلويـح دائريا بالطائـر فوق رأس مـن هـو مخصـص لـه. ويتـم طبـخ الدواجـن وفـق الوصفـات المميـزة والمناسـبة لجـلال هـذا اليـوم.

ويتـم كذلـك إعـداد خبـز كيبـور باللـوز. ومسـاء، ينتهـي الصـوم بتنـاول الحلويـات وشرب القهـوة بالحليـب، والشـاي المنعنـع، وكذلـك حلـوى «سـابايوني». وفي اليـوم المـوالي، نتنـاول في وجبـة الغـذاء أكلـة الدجـاج بالزيتـون، وبعـده طبـق «البرانيـة» (طبـق بالباذنجـان)»، توضـح نينـا بانـون.

سنة 1959، مولاي الحسن، ولي العهد آنذاك، يشرف بحضوره الاحتفال بيوم كيبور في الدار البيضاء. ونتعرف حوله على ماير أوباديا وليون بن زاكين الوزير السابق للبريد والتلغراف والتلفون، وكذلك الحاج أحمد برڭاش، أول عامل على الدار البيضاء، وشخصيات يهودية أخرى.

كانت جميع الفئات الاجتماعية في المغرب تحتفل بسُكُوت الذي يطلق عليه أيضا اسم "عيد النوالة"، مع الحرص على نصب الخيام والأكواخ بالمناسبة.

سُكُوت أو عيد المظلات

أحد أعياد الحج الثلاثة التي نصت عليها التوراة هو عيد المظلات (سُكُوت)، وتطلق عليه كذلك تسمية عيد الخيام أو عيد الأكواخ. ويبدأ الاحتفال به في اليوم الخامس عشر من تشري، أول شهر في التقويم اليهودي، خمسة أيام بعد يوم كيبّور، يوم الغفران. ويدوم سبعة أيام ويخلد الفترة التي قضاها العبرانيون تحت الخيام الهشة في الصحراء منذ خروجهم من مصر إلى أن دخلوا أرض الميعاد.

وإحياء لذكرى تلك الفترة، يتميز سُكُوت ببناء مظلات من الأغصان يتناول فيها المحتفلون وجبات الأيام التي يستغرقها العيد. ويتجه اليهود بهذه المناسبة عند باعة القصب والرتم لاقتناء ما يلزمهم لبناء مظلتهم الخاصة، ويقومون فيها بتحريك «اللؤلَب» الذي هو باقة شعائرية مفتولة تصنعها الطوائف لهذه المناسبة بالذات وتتكون من أربعة أنواع من النباتات: سعف النخيل، وعروش من الريحان، وأخرى من الصفصاف وغصن من الأترج الصافي غير الملوث. ويجب أن يزين هذا السكن المؤقت «بالمخمل الثمين» ويجهز بمتكآت مريحة حتى يتمكن المحتفلون أن يتناولوا فيه الوجبات الأربع عشرة للأيام السبعة التي يستغرقها العيد. ومن جهة أخرى، تقام صلوات شكر الرب، خاصة على خصوبة الأرض، ذلك أن سُكُوت يتزامن مع بداية الحصاد. وليلة اليوم السابع من أيام العيد، تُحيى ليلة كبرى للقراءة الساهرة تدوم إلى الصباح، مع طقوس شعائرية خاصة، «تقّونها» وما تستلزم من «إصلاح وإعادة للتوافق الشامل»، مثلها مثل ليالي عيدي الحج الآخرين، بيساح وشَفْعُوت. وتندرج هذه الليلة كذلك ضمن مظاهر تأثير مدرسة صفد القبالية في القرن السادس عشر على الطائفة المغربية.

ويعتبر «عيد التوراة»، «سِمْحَةْ ثُورَهْ»، اختتام «سكوت». وأثناء هذا اليوم الأخير الذي يعمه جو من الفرح والحبور، ينال جمع المؤمنين الحاضر بالكنيس التقدير الذي يستحقه، الكبار والصغار؛ وتؤدى

أغاني مختلفة بالعبرية، واللهجة العربية- اليهودية، والأمازيغية أو القشتالية، ترافقها الهدايا وتوزيع الحلويات والفواكه المجففة؛ أما الأطفال، فإنهم يشتدون بالأيدي... كما تُمَجَّد التوراة مثلما يحصل ذلك في جميع المناسبات التي تكون فيها شريعة الرب موضوع تقدير وتبجيل. وهذا هو مغزى الاحتفال الذي يصاحب «مناسبة هدية لفائف التوراة»، فبعد وجبة هذه المناسبة، يحمل «السفر» من بيت واهبه إلى الكنيس الذي أهدي له. ويتكون موكب يتقدمه الأحبار وأعيان الطائفة، ويعبرون الحي اليهودي وهم يرتلون تراتيل ويغنون أغاني بالعبرية واللهجة المحلية. ويذكر هذا الطقس، في العديد من جوانبه، بحفل الزواج حين ترافَق العروس إلى بيت زوجها.

ولاختتام الاحتفالات، تُفَكّ المظلات، ويصاحب التفكيك طقس نيران المباهج، حيث تستعمل أغصان المظلة لإضرام نار المباهج التي يقفز فوقها الرجال والصغار، مرددين الصلوات والتعازيم، وهو طقس

مشترك مع أمازيغ الأطلس الكبير والأطلس الصغير الشرقي الذين يسمونه «تِرِيْيانُوت». وفي أوقات مدار الشمس، كان اليهود يشعلون النار في الحقول ويحرقون النباتات ذات الطيب، مثل الزعتر، ويطوف كل واحد حولها ويقفز فوقها سبع مرات. وتشبه طقوس الدوران هذه مناسك الطواف التي يقوم بها الحجاج المسلمون حول الكعبة خلال الحج، وتشبه كذلك «الْهَقَفُوت» (الطواف) اليهودي و«التشييع» الإسلامي، تلك المواكب الدائرية التي تصاحب دفن الأتقياء.

رُوش هَشَانا

رُوش هَشَانا هو عيد رأس السنة العبرية الجديدة، ويعتبر كذلك يوم صدور الحكم الإلهي، حيث يحاسب البشر على السنة المنصرمة. ويتم الاحتفال به خلال اليومين الأولين من شهر تشري الذي تقابله في التقويم الميلادي فترة شهري شتنبر وأكتوبر. وأثناء يومي الزهد الروحي بمناسبة هذا العيد، يكون كل واحد مدعوا إلى العودة إلى ذاته وإلقاء نظرة داخلية على نفسه من أجل تذكر خطاياه الماضية والتوبة، وذلك في انتظار حلول الغفران الكبير الذي يناله التائبون في يوم كيبور. وتبلغ احتفالات العيد ذروتها مع طقس النفخ في «الشوفار»، وهو نوع من الأبواق مصنوع من قرن كبش يُنفخ فيه بإيقاعات مختلفة من أجل إيقاظ الضمائر والدعوة إلى طلب الغفران. والمطلوب خلال رُوش هَشَانا هو تأمل النفس وتمييز ذلك الصوت الداخلي العميق الذي لا يُدرَك عادة.

حَنُوكَهْ، عيد الأنوار

يحل هذا العيد في 25 كسلو، الذي يوافق حسب السنوات نونبر أو دجنبر في التقويم الميلادي، وتدوم الاحتفالات به ثمانية أيام. ويخلد الانتصار العسكري للمكابين ويرمز إلى مقاومة اليهودية الروحية للاستيعاب من طرف الإغريق. وحسب النصوص التي تناقلتها التقاليد، فقد احتضن هذا العيد تحقيق ما يعرف بـ «معجزة قارورة الزيت»، القارورة التي عثر عليها في أطلال الهيكل الثاني سنة 164 قبل المسيح. وحافظت قارورة الزيت الصافي هذه على «مينورا»، الشمعدان المقدس، موقدا مدة أيام العيد الثمانية، بينما لم تكن الكمية المتبقية فيها كافية إلا ليوم واحد فقط.

ومنذ ذاك، جرت العادة على إيقاد «حنوكه»، شمعدان ذي عروش تسعة، يسمى أحدها «شماش» ويستعمل لإشعال بقية العروش. ويصاحب الاحتفال بهذا العيد إعداد الطعام إعدادا يخضع

يمينا، سفر أستير الذي تتم قراءته خلال "بوريم".

جنبه، أحد الحجاج من الشتات أمام عرض للفروسية، بعد عودته للقاء مجدد مع تاريخه. وكانت عروض الفروسية تقام، في الماضي، في بعض المناطق بمناسبة عيد بوريم.

لطقوس خاصة وأفراحا تمتح من البيئة المحلية. وبما أن المعجزة تحققت بفضل الزيت، فالعادة تقضي بتناول أطعمة مقلية: كريات البطاطس الذائعة الصيت (المعقودة)، وكذلك الكعك المقلي وفق تقاليد المطبخ اليهودي من أصناف «لاتكس» و«سوفغنية». وفي المغرب،دأب اليهود تقليديا، خلال أيام «حنوكه» الثمانية، على تناول الإسفنج (السُّفَنْج) المعد إعدادا جيدا بالزيت ودقيق القمح الخالص. ومن جهة أخرى، فروح التضامن وحسن المعاملة تسود بهذه المناسبة، ذلك أن الإسفنج المعد لا يكون مخصصا للاستهلاك الشخصي أو العائلي دون سواه، بل يستثمر كفرصة لتقديم عطايا إضافية للجيران والأطفال والمحتاجين.

وتعد «حنوكه» أيضا مناسبة لممارسة لعبة الغضاريف من قبل الأطفال. فإبان عهد هيكل القدس، قرر الإغريق، الذين كانوا يسعون إلى فرض عبادة آلهتهم على الشعب اليهودي، أن تلقن التوراة جريمة قد يصل حكمها إلى الإعدام. ومن أجل التحايل على هذا الحظر ومواصلة الدراسة سريا، كان الأطفال يتظاهرون بأنهم يلعبون بالغضاريف عند اقتراب دورية عسكرية إغريقية منهم. وكان كل وجه من وجوه غضروف حنوكه يحمل حرفا عبريا: نون، كْيمَل، هيه وشين. وتعني هذه الحروف العبارة التالية: «معجزة كبرى حصلت هناك».

«بوريم» وقراءة «سفر أستير» بالدارجة المغربية

فضلا عن طابعه الديني والتاريخي، يكتسي هذا العيد، هو الآخر، بعدا محليا. ويخلد الاحتفال به واقعة إنقاذ اليهود من طرف الملكة أستير من مؤامرة دبرها هامان، مستشار ملك الفرس والعدو اللدود للشعب العبري؛ وسيطلق الأخير، تلو نجاته من هذا المصير المأساوي، تسمية «عيد المساخر» على بوريم. كما صارت شخصية هامان رمزا للشر في المتخيل الجماعي.

في المغرب، كان «سفر أستير» يُقرأ، بهذه المناسبة، بالعبرية في البيعة، وبنفس اللغة في البيت بعدها، ولكن كذلك، في هذه القراءة الثانية، بالعربية الدارجة حتى يتمكن الأطفال والنساء، غير الملمين باللغة المقدسة، المشاركة في ملحمة أستير. وحين نعلم، على مستوى آخر، أن الطوائف اليهودية المغربية اتخذت لها أيضا أعياد بوريم أخرى مرتبطة، هذه المرة، بالأحداث التي عاشتها المملكة (من بين أبرزها دلالة بوريم معركة وادي المخازن أو الملوك الثلاثة، في الرابع من غشت 1578)، فإننا نلمس مدى تجذر اليهودية المغربية في تاريخ البلاد.

ودرجت العادة على الابتهاج والفرح، فطرقات الملاح كانت تغص على غير المعتاد، وموائد البيوت تطفح بمأكولات معدة بإتقان وبماء

سيدة يهودية تعد "الماحيا" (ماء الحياة).

الصفحة يسارا: "صدقه" (عمل خيري)
تكريما للربي شمعون بر يوحاي (1930).

الحياة، و«الماحيا» وفيرة والوجبات عبارة عن مآدب حقيقية. وبصفة استثنائية، كان يسمح بلعب القمار في بوريم، أوليس هو «عيد الحظ» ومن حق كل واحد أن يجرب حظه!... ودام الاحتفاء بهذا العيد الذي يعطي نموذجا رائعا على امتزاج البعد الديني بالتاريخ المحلي، قرونا طويلة إلى حين إقامة نظام الحماية الفرنسية.

وهذه مقاطع من مقطوعة شعرية بالعبرية- العربية ليهودا هاليفي، الشاعر والفيلسوف الذي عاش في العصر الذهبي الأندلسي، وهذه «المِيكَامُوخا» («من مثلك؟» بالعبرية) مقطوعة شعائرية تقرأ في البيع أثناء قداس صباح يوم السبت الذي يتلوه عيد «البوريم»، ويحكي فيها الشاعر بطريقته الخاصة قصة «أستير» التوراتية (الرباعيات 6 و38 و48):

«وُ كَانْ فْ يُومْ أَشَاشِيرْ (وكان في عصر أشاشير)
سَلْطَانْ وْقَفْ عْلَ كُلْ بَقَّاشْ وْأَمِيرْ (ملك يسود النبلاء والأمراء)
عَالِي وَمَرْفَّعْ عْلَ كُلْ قَايْد ووْزِيرْ
(وهو أكثر شموخا وأكثر مجدا من كل قائد ووزير)
لله نَجَاحْ إيلُو (يا رب نجحه وأعنه)
إشْرَاتْ أَسْتِيرْ خَبْرُوهَا لَكْلَامْ (وصيفات أستير نقلن لها الخبر)
سْمَعْنَا عِيطَا كِيفْ النْعَامَا فَالْمَدْبَارْ
(لقد سمعنا صياحا مثل صياح النعامة في الصحراء)
مَرْدْخَايْ بَالْبَاسْ التَّلِّيسْ دَارْ مْغَنْبَرْ (لقد مر مردخاي وعلى ظهره بردعة)
لَايْشْ غْرَفْنَا إِسْ كَانْ (لا ندري ماذا حدث له)
لْمَزْيَانَا فِي النْسَا، عَرْضْ النْعْمَانْ لَخْضَرْ
(آه يا أجمل النساء، يا غصن شقائق النعمان)
إشْ طْلَبْتَكْ إنْ كُلْشِي مُوجُودْ وْمْحَضَّرْ (ماذا تطلبين؟ الكل طوع إرادتك)
وْقَالَتْ إجِي السَّلْطَانْ وْهَامَانْ لَعْوَرْ
(وقالت ليأت السلطان وهامان الأعور)
المَجْلِيسْ ادّي غْمَلْتْ إلّو (إلى مجلس الشراب الذي أعددته له)».

«الهيلولا»

كحدث مأساوي، ومصير لا يفلت منه أحد رغم أن لا أحد يستطيع توقع لحظته، يرتبط الموت دوما بالحداد، بالإقرار بالفقدان النهائي للكائن العزيز والفراق بدون إمكانية للتلاقي من جديد. يلقى الميت ربه، مخلفا حزنا وألما دفينين ولا حدود لهما في نفس أقاربه.

لكن الهيلولا تشكل استثناء، إذ هي إحياء ذكرى الموت البهيجية للأولياء اليهود.

الهيلولا في المغرب

هيلولا ولي الرباط
وسلا الربي رافائيل
عنقاوة، بسلا.

«الهيلولا» كلمة مشتقة من اللغة العبرية الآرامية، تكونت انطلاقا من الجذر «هيه. لامِد. لامِد» وتعني «صيحوا بفرح وخوف». والهيلولا عادة يزور بمناسبتها المؤمنون مدافن «تصادِقيم» (الحقانيين) يوم حلول ذكرى وفاتهم. وهكذا، يفد إلى المغرب الكثير من الحجاج من كل أرجاء العالم للاحتفاء بأوليائهم الصالحين عبر جميع مناطق المملكة.

لنتابع نينا بانون وهي تصف لنا ليلة الهيلولا المغربية: «على ضوء قناديل الزيت الموقدة تكريما للولي الصالح، يقرأ المؤمنون ويتلون بأصوات عالية الصلوات وتراتيل المزامير. تتعالى المقطوعات المنظومة، فتضاعف أنوار الشموع الانفعالات. يشعر المرء بتصاعد قوى مجهولة، حررتها الطاقات التعزيمية للصلوات. ومن بين صفوف هذه الأمواج البشرية النازعة إلى نفس التمجيد، ترتفع صيحات لا يكف عددها عن الازدياد، نافذة من حجاب الظاهر لتهب للجميع الحضور المأمول. لقد ظهر الولي: «ها هو، إنه هنا! ها هو جا!»، تقول الجموع بإيقاع موزون بعد هنيهة، مجروفة برمتها بالاندفاع الانجذابي الذي يحركها...

تشتعل نيران الفرح (الشعالة). يزود الحاضرون النيران بعلب الشموع فتتصاعد ألسنة النار وسط الليل. تستحوذ قوة ما ببعض الحجاج، فيشرعون في القفز فوق النيران، بينما تصبح الأناشيد والرقصات حماسية أكثر فأكثر. تتساقط قطع وأوراق النقود بلا حساب... ستسلم للطائفة اليهودية في المغرب التي ينظم أفرادها الهيلولات في مختلف المناطق حيث توجد مدافن أولياء صالحين.»

يتواصل الاحتفال بالهيلولا إلى حدود الآن بالمغرب، مجسدا التجذر العميق للثقافة اليهودية المغربية في المملكة.

هيلولا الربي إسحاق
أبي حصيرة في كْرامة.

هيلولا الربي داود أوموشي
في أكْويم، قرب ورزازات.

هيلولا الربي عمرام
بن ديوان بوزان.

الحاخام الأكبر إسحاق كوهن الصقلي الذي عاش في دبدو في بداية القرن العشرين.

يقام هذا العيد في اليوم الثالث والثلاثين من مدة «عومر» التي تفصل بين عيد الفصح اليهودي و شَـفْعُوت، عيد نزول التوراة. فترة الشدة هذه يتم خلالها التقيد بصرامة بعدة قواعد، منها مثلا عدم عقد أي قران أو لعب الموسيقى أو قص الشعر. الهيلولا وحدها حين تحل، تُنهي هذا الجو الصارم الخالي من المتع. فلماذا هذا؟

حسب القابالیين، فالأيام التسعة والأربعون لعومر ترمز للمسار الذي سلكه اليهود، عبر تسعة وأربعين بابا، من رجس العبودية إلى طهارة وحي طور سيناء. ويعتقد أن الربي شمعون بر يوحاي توفي في ذلك اليوم وكشف لأتباعه، قبيل وفاته، العديد من الأسرار. و«هيلولا» كلمة آرامية تعني العيد، وعلى الخصوص الزواج؛ وأصبحت بعدها تعني ذكرى وفاة الحاخامات أو الزعماء الروحيين المشهورين.

ولاستيعاب هذا الاقتران، الذي قد يبدو غير طبيعي، للاحتفال والابتهاج مع الموت، يجب استحضار كون الوفاة، بالنسبة للتقاليد اليهودية ولتقاليد أخرى أيضا، ميعاد لا مفر منه للأحياء. أَوَلا يشير سفر يوسف أن «الموت (...) ميعاد كل الأحياء»؟

ووفاة هؤلاء الأولياء والصالحين لا تعني فحسب مجرد الفراق النهائي معهم، بل إن مفهومها يتجاوز هذا الاختزال، إذ هي تشكل التمهيد الجوهري لاتحاد روحهم مع الرب.

وهذا ما يفسر الطابع الاحتفالي للهيلولا: بما أن الموت مكون من مكونات الحياة، فالوفاة هي الاختبار الواجب اجتيازه لكي تتمكن الروح من الالتحاق بربها.

ضمن هذا السياق يجب إدراج العادة المشتركة بين اليهود والمسلمين، العادة المتمثلة في قضاء أيام بأكملها في المقابر، مع إحضار وجبات الأكل، وأيضا قوارير مياه كانت تُترك على قبور الأولياء الصالحين طيلة الليل وتُسترجع صباحا لشرب مائها، ما يبرز مجددا أهمية طقوس الماء. وكان بعض المرضى يقضون الليلة بكاملها قرب قبر وليهم الصالح بغية الشفاء، ونساء يشعلن الشموع على قبر قريب فقدناه... وربما يجسد طلب الأحياء من الموتى التشفع لهم إحدى أجمل لحظات الديانتين اليهودية والإسلامية.

شَبَتْ

«مع شَبَتْ، نحتفي بـ24 دجنبر كل أسبوع»، كان عادة ما يقول شمعون ليفي، مؤسس متحف التراث اليهودي بالمغرب. كل جمعة، من غروب الشمس إلى غروب شمس يوم السبت، يحتفل اليهود بيوم استراحة اليوم السابع، ذلك أن الأسبوع يبدأ حسب التقويم العبري أيام الأحد. ويحرم، خلال هذا اليوم، كل عمل من أجل استقبال «شبت» كما يليق. وقد ورد في سفر الخروج: «أذكر يوم السبت لتقدسه».

ووفق التقاليد، فإن الإنسان تكون له روحان يوم السبت، روحه الملازمة له أصلا وأخرى إضافية، وتصبح خلال اليوم كل قوى الشر عاجزة عن الفعل. وفي المغرب، تقضي عادة قديمة بالتدثر بـ«الطَّالِتْ»، خمار الصلاة الذي يقي الإنسان من الشر.

وكان الفيلسوف ابن ميمون يدعو إلى غسل الوجه واليدين والرجلين بالماء الساخن، ويأمر بالتدثر بـ « الطَّالِتْ وانتظار استقبال وجه «شبت» انتظار تأمل وخضوع، وكأنك تنتظر زيارة ملك.» ويعتبر طبق «الدفينة» أو «الشخينة» الأكلة الأساسية ليوم السبت المقدس عند الطوائف اليهودية المغربية، وإعداده مرتبط مباشرة بسياق «شَبتْ».

وبما أن الطبخ محرم خلال هذا اليوم، تشرع النساء في طهي طبق «الدفينة» ابتداء من الجمعة، قبل حلول الليل، ويتركنه على نار هادئة ساعات طويلة، ما يضفي عليه مذاقا فريدا. ويشتمل الطبق عموما على لحم البقر، والبطاطس، والحمص، والبيض والقمح.

وتتمثل خاصية أخرى للطوائف اليهودية المغربية في أمسيات السبت التي دأبت على تنظيمها، والتي يلتقي خلالها عشاق الأغاني الأندلسية واليهودية لتمجيد الرب إلى أن يظهر نور الصباح. وبالإضافة إلى التلاوة التقليدية للمزامير و«نشيد الأنشاد» للملك سليمان، كانت تقدم منظومات شعرية لمؤلفين قدامى وحديثين لهم باع طويل في تقنيات الموسيقى العربية.

كانت الطوائف تقوم بشعائر الزيارة مرتين في السنة عموما، بالذهاب إلى مواقع قبور الأولياء وإحياء ذكرى وفاتهم. واتخذت هذه الزيارات صبغة دينية واحتفالية، وكانت تحتضن مظاهر الفرح الجماعي، تُتلى أو تغنى بمناسبتها «قصائد» طويلة تحكي سيرة الولي الصالح، وأعماله الخارقة ورؤاه التنبؤية... واكتست هذه الاحتفالات، حيث يمتزج الديني والدنيوي، طابعا شبيها بعادة «الموسم» في المجتمع الإسلامي، وعلى غرار زوايا الأولياء المسلمين، كانت أضرحة الأولياء اليهود ذات معمار رفيع. وتعبر هيلولا الربي عمران بن ديوان أهم هذا الصنف من الاحتفالات الدينية اليهودية في المغرب.

ويمثل السفر للذهاب إلى مكان الهيلولا فرصة للمتعة في حد ذاته، ويتم عادة في فصل الربيع، وكثيرا ما تتوقف الأسر في الطريق للنزهة والاستراحة والتندر، متأملة ربما المقولة التوراتية التي جاء فيها: «ينبغي لعظماء كل جيل أن يموتوا ليتركوا المكان لخلفائهم». وليلا، كانت الخيام تنصب، والزوار يتجولون أو يستقبلون الضيوف، والخرفان تُذبح للشواء... فعلا، البون شاسع بين احتفالات الهيلولا من جهة، وزيارات القبور المغرقة في الحزن وأجواء يوم ذكرى الأموات المسيحي من جهة ثانية...

صياغ الذهب والفضة، الأصالة والابتكار

خلافا لفكرة شائعة، فحرفة صائغ في المغرب ليست مرتبطة، في أصلها، بالحياة الحضرية؛ بل كان حرفيوها، في الغالب، بدويين مستقرين جماعيا في بعض القرى، أو مشتتين في محترفات صغيرة.

ويجب، في هذا الجانب، التأكيد على الدور الإيجابي الذي اضطلع به الصائغ اليهودي في نشأة فن الصياغة المغربي، فبالإضافة إلى محافظته الناجعة على تقنيات جد عريقة في المجال وعلى المهارة والحذق الموروثين من العصر الأندلسي، ابتكر فنيات جديدة شاعت عبر ربوع المملكة. هكذا إذن، فمناطق البلاد النائية، لاسيما الجنوب وجبال المغرب الشرقي، هي التي احتضنت بروز الصياغة البدوية اليهودية والأمازيغية.

ويعتبر اختيار المعدن الثمين أول خاصية لها، ذلك أن البادية المغربية لم تكن تتذوق حلي الذهب إلا بشكل معتدل، زيادة على أن اقتناءها لم يكن في متناول ساكنتها بسبب الموارد المالية للفلاحين وسكان الجبال الضعيفة مقارنة مع دخل سكان الحواضر؛ ما دفع إلى اختيار الفضة معدنا للصياغة.

ورثت الأجيال عن الأجيال تقنيات الصياغة بدقة عبر عدة قرون. جنبه: حرفيون صاغة يهود في الوسط القروي (1935).

أما خاصية هذه الصياغة البدوية الثانية، فهي انقسامها إلى تقنيتين اثنتين معروفتين إلى حد ما: صياغة المنتجات المسبوكة وصياغة المنتجات المرصعة.

المجوهرات المسبوكة والمخرومة كانت تُصنع من قبل الحرفيين اليهود الذين يجوبون البلاد بأسرها أو يتبعون، أحيانا، الرحل في تنقلاتهم. وهي من أصناف جد متنوعة، فعلاوة على حلي الجسم، مثل القلادات والأساور والخلاخيل والأقراط الكبيرة الحجم، نجد أنواعا متعددة من مشابك الملابس ودبابيس الزينة الدائرية.

ولهذه الحلي ميزة أساسية تتمثل في اشتمالها على سليسلات دقيقة تعلق في القلادات والأقراط والأساور، وتحمل في طرفها أنواطا مسطحة مقصوصة من أوراق فضية رقيقة وذات مظاهر مختلفة: أيادي، وأهلة، وأقراص وأشكال بشرية... وثمة مؤشرات تدفع إلى الاعتقاد بأن هذه الأشكال الأصيلة تعود إلى أقدم العصور، كما تُذَكر طريقة تركيب السليسلات والأنواط بقوة بحلي نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي. وهذا الصنف الأخير من الحلي لم ينقرض أبدا، بل عُثر على امتدادات له لدى البيزنطيين، وتأسيسا عليه، فهو غير قابل للفصل عن أصل وتاريخ اليهود المغاربيين.

وبالنسبة للصياغة المرصعة، فهي أكثر تنوعا من الأولى؛ ومن بين منتجاتها المميزة نجد التاج الذي يثبت على وشاح الرأس.

وبطبيعة الحال، فالفرادة الأساسية لهذه الصياغة تنجلي في تقنية الترصيع. ويسبق هذه العملية إلحام مسوغات معدنية تقسم القطعة المعالجة إلى زخرفات عربية معقدة. وتنثر في الفراغات المقسمة مساحيق ميناء المعدن التي تختلف ألوانها حسب المناطق؛ ثم توضع الحلية في موقد فحم تقليدي يزند الحرفي ناره بواسطة منفاخ.

وعلى أرض الواقع، فكل مركز لإنتاج الحلي المرصعة كان يتمتع بخاصية مميزة له، لكن المراكز جميعها كانت تشترك، بالإضافة إلى

تقنية الترصيع، في أشكال الحلي وتنسيق مكوناتها، وهذا المشترك هو ما يحدد هوية مجموع الصياغة الأمازيغية في إفريقيا الشمالية.

وتنتمي هذه الصياغة المغاربية تاريخيا إلى عائلة الصياغات المجزأة أو المسوغة الكبرى التي ظهرت في المشرق وعرفت أوجها في أوربا خلال القرون الوسطى، وعلى وجه الخصوص في مملكة القوط الغربيين. وتشير جميع المعطيات إلى أن المطرودين من شبه الجزيرة الإيبيرية هم من أولجوا هذه التقنية إلى المغرب، خاصة أن القوط الغربيين عرّفوا بها في إسبانيا وأن الصياغ اليهود والمسلمين حافظوا عليها هناك وأغنوها على مر قرون. ويبدو أن هذه الصياغة، المجهولة من قبل في إفريقيا الشمالية، ولجت إلى المنطقة ابتداء من القرن السادس عشر، وافدة إليها من إسبانيا. وقد انتشرت هذه التقنية في البوادي الأمازيغية وترسخت في تربتها، بينما تغيرت الأذواق في المدن الأقل محافظة من الأرياف.

هكذا يتضح كيف أن تقنية شرقية رأت النور في بقعة ما من شمال إيران، ونقلها الجرمان عبر السهول الأوربية خلال مرحلة أفول الإمبراطورية الرومانية، وعمرت قرونا في أقصى الغرب الإيبيري، لتحط الرحال في نهاية المطاف في إفريقيا خلال العصر الحديث. هذا المسلسل التاريخي جعل هنرييت كامب فابرير (Henriette Camps-Fabrer) تكتب: «نظرا لتقنيتها، وكذلك لمهابتها، تظل هذه الحلي، في عز القرن الواحد والعشرين، تحفا قروسطية، تحفا أصبحت بربرية أصيلة.»

"الكسوة لَكْبيرة"، زي العروس اليهودية المغربية التقليدي، تضعها النساء دوما بمناسبة أعراس الزواج الكبرى.

سولانج تهيئ مائدتها

الليل بدأ يرخي سدوله، لقد حان الوقت لإشعال الشموع. شمعة غرفة الأكل أولا، الحجرة التي ستستقبل العائلة بأكملها بعد دقائق. تلقي سولانج نظرة خاطفة وشبه احترافية على مائدتها. قالت لنفسها بقسط من الافتخار إن المائدة براقة ورائعة؛ السماط جديد والطقم من الخزف الصيني الأبيض المزين بأزهار الخشخاش المنثور المرسومة بدقة. طقم الأواني خلفته لها أمها، بدا لها متقادما بعض الشيء، لكنها واست نفسها قائلة إنه يجعل المائدة تبدو أنيقة وأصيلة.

كل شيء جاهز تماما، «الدفينة» تهتز على الموقد الكهربائي منذ الصباح، مكرملة جيدا. وكبب اللحم ليوم الجمعة لينة ومتبلة كما يلزم. وسلطات لا يحصى عددها تنتظر مُبَرّدة؛ وصفات بسيطة من الخضر وتقليدية كلها، لكنها ستملأ المائدة وتعطي انطباعا جميلا بالوفرة، ذلك الانطباع جد الضروري بمناسبة شَبّت. كل شيء مثالي مساء الجمعة هذا. وسولانج تقرر تخفيف الضغط عن نفسها بضع دقائق وتتمدد على أريكتها المفضلة. إنها وحيدة وهادئة، ونظرتها اليقظة ترصد مائدة احتفالها، المائدة الباذخة قدر الإمكان تكريما لشَبّت هذا الذي تريده بهيجا بشكل خاص. حينها، قررت سولانج تدخين السيجارة الأخيرة المسموح بها قبل حلول الليل.

تعرف أن التدخين سيمنع عليها بمجرد ما تشعل الشمعة الأولى. وهي في الشرفة، تنتظر إطلالة النجوم الأولى في السماء المائلة، تفكر سولانج في نوع الخمر الذي ستقدمه لضيوفها. أمامها خياران اثنان من النبيذ المغربي ستحكم كوليت، زوجة أخيها، عبر الذي تنتقيه منهما على وضعهم المادي الحالي. لكنه لا مجال للبخل بمناسبة شَبّت بطبيعة الحال، ولذا ستقرر سولانج، في نهاية المطاف، إظهار بحبوحة عيشها.

وستضع أيضا أجمل مجوهراتها وصدرية حريرية أعلى تنورتها؛ وتبا لعيون الحساد! لن يتأخر زوجها في العودة من الكنيس، ولذا، عليها الاستعداد بدون تأخير لاستقباله. الإضاءة أولا عبر إشعال الشموع، إشارة النساء اليهوديات الدينية اللافتة. ستلج الملكة شَبّت المكان، شَبت دخلت.

أثناء "الهَفْدَلَه"، صلاة اختتام شَبّت، تقضي التقاليد بإشعال شمعة وتنسم العطور (ليمون حامض في الصورة). ويقوم رب الأسرة بمباركة الخمر، وكذلك الوالدين.

غدا، سيتكرر الطقس نفسه. سيعود رجالها من الكنيس؛ وبعدها، سيجلسون حول المائدة لإقامة الصلاة، فمباركة الخمر وخبز شَبّت المعد في البيت، الخبز اللين والناعم الذي سيقطعه زوجها ويوزعه، مع الحرص على أن ينال كل واحد كسرته الصغيرة المباركة. سيتناولون غدا السبت كمية قليلة من السلطة، ذلك أن «الدفينة» ستحتل المعدة برمتها: قمح، وأرز، وبطاطس دائرية صغيرة، مكرملة ببطء... لكن غدا يوم آخر، له طقس آخر...

ككل جمعة، عندما تشرع ثلاث نجمات في الوميض في السماء، يكتسي بيت سولانج، النظيف تماما والمحتفل، لونا مذهبا؛ نسق شعلة لوني لطيف.

فاليري موراليس أتياس
Valérie Morales-Attias

الاحتفاء بالذاكرة

22 دجنبر 2020.
صاحب الجلالة
يستقبل وفدا
أمريكيا-إسرائيليا
رفيع المستوى.
©MAP.

مقتطفان من الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى المشاركين في أشغال المؤتمر حول «حقوق الأقليات الدينية في الديار الإسلامية.. الإطار الشرعي والدعوة إلى المبادرة» مراكش، 25 يناير 2016، الموافق لـ 14 ربيع الآخر 1437هـ.

« أيها السادة أيتها السيدات،

لقد عرف تاريخ المغرب نموذجا حضاريا متميزا في مجال تساكن وتفاعل المسلمين مع أهل الديانات الأخرى ولاسيما اليهود والنصارى. ومن العهود المشرقة في تاريخ هذا التساكن ما أسفر عنه الالتقاء على صعيد بناء الحضارة المغربية الأندلسية، حيث ازدهرت بين مختلف الطوائف التجارات والصناعات والفنون وتبادل ثمرات الحكمة والفلسفة والعلوم.

ولاسيما عندما انتقل عدد كبير من المسلمين من الأندلس إلى المغرب في ظروف عصيبة وانتقل معهم يهود انضافوا إلى اليهود الموجودين في المغرب منذ ما قبل الإسلام. ولم يعتبر المسلمون المغاربة اليهود أقلية على مستوى المعاملة، بل كانوا كالمسلمين موجودين في كل الأنشطة والمجالات، منتمين إلى كل الطبقات الاجتماعية، مسهمين في بناء المجتمع، مكلفين بوظائف ومهمات من الدولة، متميزين بثقافتهم. ولولا جو الاطمئنان والحقوق التي تمتعوا بها لما كان لهم الإسهام المشهود إلى اليوم في العلوم الدينية والاجتهادات الشرعية المتميزة داخل التراث اليهودي في العالم. »

« أيها السادة أيتها السيدات،

إننا بوصفنا أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، نضع على عاتقنا حماية حقوق المسلمين وغير المسلمين على السواء، نحمي حقوقهم كمتدينين بمقتضى المبادئ المرجعية الثابتة التي أشرنا إليها، ونحميهم كمواطنين بمقتضى الدستور، ولا نجد في ذلك فرقا بحسب المقاصد والغايات. ونحن في ذلك إنما نحرص على الاستمرار على ما درج عليه أسلافنا الأماجد، ويكفي أن نشير هنا إلى ما قام به جدنا السلطان المولى الحسن من إهداء أرض تقوم عليها - إلى اليوم - الكنيسة الإنكليكانية في طنجة. كما نذكر قيام جدنا جلالة المغفور له محمد الخامس بحماية اليهود المغاربة من بطش حكم فيشي المتحالف مع النازية، وما بادر به والدنا جلالة الملك الحسن الثاني - طيب الله ثراه - من استقبال البابا يوحنا بولس الثاني في أول زيارة له لبلد إسلامي. »

قدم الحضور واستمرارية التعلق بالمملكة ورموز وحدتها

منذ العهد السعدي، اعتبرت المنطقة الشرقية من الإيالة الشريفة منطقة ثغور، أي مجال تماس يفصل أرض السلطان عن أخرى تحت حكم قوى أجنبية «عدوة»، مسلمة ونصرانية، لها أطماع ترابية وطموحات اقتصادية، كان من باب الجهاد مواجهتها باتخاذ تدابير فاعلة للرفع من درجة الاستنفار الجماعي. وعليه أولى السلاطين السعديون، وبعدهم العلويون، أهمية خاصة لتوثيق الروابط مع قبائل المنطقة الشرقية ونخبها مسلمين ويهودا، وسعوا ما أمكنهم ذلك إلى ترسيخ وجودهم في الحواضر، أهمها وجدة، وفي البوادي والمراكز الحضرية من قبيل دبدو و فكّيك وتوات... والحال أن وجدة فرضت نفسها على مجموع المنطقة كمركز تجاري، وبشكل أخص كعاصمة جهوية بها حضور مخزني وازن تمثل في قوة ممثلي المخزن وقدرتهم على فرض السلطة. وقد حرص المخزن المركزي والمحلي دوما على تأمين حياة ومصالح اليهود المستقرين في مجموع المنطقة، من خلال حماية الأنشطة الاقتصادية المتنوعة، وبعضها كان حكرا عليهم، وكذلك بالحيلولة دون تعرضهم للتقلبات الكبرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وخلال القرن التاسع عشر، جرت العادة أن يجد اليهود ملجأ في قصبة المدينة لتأمين أرواحهم ومصالحهم كلما تعرضت المدينة لهجوم من القبائل واستفزازات المتمردين على السلطة المركزية.

صاحبة السمو الملكي
الأميرة للا حسناء تتلقى
الدفتر الذهبي من
طرف ممثلين لمنظمة
EM Habanim Sephardic
Congregation and
Community Center.
© MAP.

لقد كان بيّنا أن وجود اليهود بالمنطقة قديم بدليل حضورهم في جميع مراكز السكن كبيرها وصغيرها، ووجود مقابر قديمة، وكذلك لسعة شبكة المعاملات مع سكان المنطقة والجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء والضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط. والمثير أن الذاكرة الشعبية اليهودية لقرون رعت أسطورة الاعتقاد في كون يهود المنطقة من حفدة اليهود الأوائل الذين قدموا إليها واستقروا بها منذ ألفي سنة. وتذهب بعض الطروحات حد القول إن غالبيتهم أمازيغ تهودوا وظلوا على دينهم حتى بعد الفتح الإسلامي. ومن تداعيات التمتع بوضع الذمة، حرص الجماعات اليهودية على استقلاليتها، وتوطيد الأواصر التي تضمن الانسجام والتعاضد الاجتماعي، وكذلك الاحتماء بالسلطة المركزية ضد العوادي البنيوية والطارئة. وتدل العديد من الإشارات المضمنة في كتب الإخباريين والمتون الفقهية أن يهود المنطقة الشرقية حظوا برعاية خاصة من طرف السلالات الحاكمة وكذلك ممثليها المحليين، ولم يسبق أن حصلت حوادث جسيمة كانوا ضحيتها لمجرد كونهم يهودا .وأوضحت شهادات الأوروبيين الذين زاروا المدينة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين، أن يهود المنطقة هم من دون شك «أسعد» يهود الإيالة الشريفة لعدم تعرضهم لممارسات مشينة تحط من شأنهم. وتختلف ملاحات المنطقة عما سواها بكونها لم تكن مسيجة بأسوار، ويعيش داخلها يهود ومسلمون، ولا تفرض على اليهود خارجها ممارسات تحقيرية. ومن دلائل التعايش بين المسلمين واليهود، تقاسمهم للعديد من العادات والتقاليد، بل إن بعض الأولياء الصالحين كانوا مشتركين.

ولا شك أن سقوط الجزائر في يد الفرنسيين وفرض صيغة متوحشة للاستعمار الاستيطاني، ساهم كثيرا في التأثير على الوضع العام في مناطق الشريط الحدودي بين المغرب والجزائر. لقد ترتب عن الاحتلال العسكري المبكر للشريط

الشرقي الممتد على طول الحدود، وبناء سكة حديدية تربط بين مواقع ذات أهمية استراتيجية تصل إلى وجدة، ثم بعدها في وقت لاحق حتى تاوريرت ومنها إلى فاس، انتشار مشهود للتجار اليهود، استقروا في المراكز الحضرية الجديدة مكونين شبكة تهيمن على نسبة غير هينة من المبادلات الجهوية. ومن مضاعفات الوضع الجديد، اكتساب عائلات بعينها للحظوة، فتحول أربابها إلى زعماء محليين. وظلت دبدو كما في الماضي مركزا ذا إشعاع روحي وحضاري حيث «اليهود يمتلكون البضائع ويشتغلون كوسطاء في جميع الأنشطة التجارية».

وإجمالا ظلت العلاقات بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية إلى حدود انتصاب الحماية سنة 1912، عادية بدليل استمرار التجاور والتساكن في مجال واحد، من ذلك حي أولاد عمران في وجدة، وملاحات المراكز المحلية التي على كل

حال عرفت ارتفاعا ملموسا في عدد السكان بفضل التكاثر الطبيعي، ووفود يهود من المناطق الجنوبية الشرقية، ثم بعد فرض الحماية، من فرنسا والجزائر المجاورة وتونس ودول الضفة الشمالية للمتوسط خاصة من إسبانيا.

وعند احتلال الفرنسيين لوجدة سنة 1907، وحتى قبلها لما أتمت القوات الفرنسية «تهدئة» منطقة الحدود انطلاقا من التراب الجزائري وربطت المدينة بخط سكة حديدية، لوحظ ارتفاع عدد اليهود نتيجة نزوح جماعي من البوادي بسبب الاضطرابات السياسية جراء الصراع على الحكم. فقد قدر عدد اليهود بالمدينة بحوالي 1200 من أصل 6300 نسمة (حوالي خمس السكان)، مما جعل وجدة خامس مدينة مغربية من حيث عدد اليهود. وكانت بعض العائلات تعتبر نفسها وجدية محضة، من قبيل أحرفي وعبيدة وبنشريبط وأزولاي وبنسمحون وبنسمون...، وأخرى ذات أصول أندلسية

20 نونبر 2019.
صاحبة السمو الملكي
الأميرة للا حسناء تترأس،
في لوس أنجلس، حفل عشاء
يحتفي بالدولة العلوية. ©MAP

(مثل مارسيانو، وبعضها من تافيلالت والأطلس، وجميعهم عززوا صفوف عائلات قدمت من الضواحي، من بني يزناسن ودبدو... وما تجب الإشارة إليه هو أنه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قدمت إلى المنطقة وخاصة إلى وجدة، عائلات يهودية جزائرية سرعان ما اختلطت بأهل البلد واندمجت فيهم، ليشكلوا جميعا جماعة قوية، ما لبث أن زادها الحضور الفرنسي أهمية بالنظر إلى الأدوار التي لعبوها في الدورات الاقتصادية .ومن مؤشرات النقلة الطارئة، فتح الرابطة اليهودية العالمية، أليانس، لمدارس للتعليم العصري، احتضنت صفوفها تلاميذ وتلميذات. وعلى خلاف ما وقع في مناطق أخرى، لم تجد الرابطة عناء كبيرا في إقناع الآباء بفضائل التعليم العصري. ففي سنة 1950، بلغ عدد الأطفال اليهود المتمدرسين في وجدة وحدها 500؛ وكانت غالبية الأطفال في المنطقة برمتها على الأقل يعرفون القراءة والكتابة، وكُتب لبعضهم الانتقال إلى السلك الثانوي، وبعضهم التحق بالجامعات الجزائرية والفرنسية .والمحصلة أن يهود المنطقة الشرقية كانوا أكثر تمدرسا من أقرانهم اليهود في المناطق الأخرى، يهودا ومسلمين، وهو ما يفسر ارتفاع عدد الحاصلين على شهادات عليا في صفوفهم، وكذلك انخراط العديد منهم باكرا في الأحزاب المغربية والحركة الوطنية والنقابات العمالية.

وإن بالغت العديد من التقارير الصادرة عن جهات يهودية في وصف ظروف عيش اليهود إذ نعتتها بالبؤس والشقاء، فإن يهود المنطقة لم يكونوا يعتبرون أنفسهم كذلك لأن ظروف عيش المسلمين لم تكن أحسن. لقد أكد عدد لا يستهان به من الشهادات لموظفين فرنسيين أن مستوى عيش يهود المنطقة الشرقية كان أحسن بكثير مما كان عليه يهود مدن أخرى. والواقع أنه في الفترة السابقة لفرض الحماية، بدأت تظهر بعض مؤشرات التغير في العلاقات بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية، من بينها ارتداء بعض اليهود للزي الأوروبي، والاختلاط بالأوروبيين، واقتناء الأواني العصرية وتدخين السجائر، وتعلم اللغات الأجنبية خاصة الفرنسية، وارتفاع عدد المحميين القنصليين داخل الأوساط اليهودية،

واستبدال الأسماء الشخصية اليهودية بأخرى مسيحية، وبروز نخبة ميسورة متشبعة بالأفكار الغربية، ولكن ليس إلى درجة القطيعة مع بني جلدتهم والسلطات المخزنية. ومن دلائل التغير كذلك، كون النساء اليهوديات كن من أوائل من قبلن أن تؤخذ لهن صور فوتوغرافية شخصية. ومهما يكن، فإن الجماعة اليهودية بوجدة كانت من أولى الجماعات التي عرفت تحديثا في الهيكلة التنظيمية، من ذلك تنظيمها على النموذج المعمول به في مناطق أخرى، مما ترتب عنه ربطها بالمؤسسات اليهودية الفرنسية.

وشأن غالبية الجماعات اليهودية المغربية، اندمجت جماعات المنطقة الشرقية بسرعة وسهولة في نظام الحماية، وانقسمت إلى شطرين متساويين من حيث العدد: المغاربة اليهود رعايا السلطان وتجري عليهم القوانين المخزنية، واليهود الفرنسيين وجزء كبير منهم قدم من الجزائر، وهم مواطنون فرنسيون بدا في الكثير من المناسبات أنهم لا يرغبون أصلا في أن ينعم إخوانهم في الدين المغاربة بنفس ما يتمتعون به من حقوق. والحال أن العلاقات بين الجماعتين اتسمت بالتنافر، مما كانت له آثار واضحة على العلاقات مع السلطتين الفرنسية والمخزنية. وسجلت العديد من وقائع الصدام بين الجماعتين، زادها حدة تناسل مناسبات معاداة السامية التي تسببت فيها تصرفات صادرة عن معمرين فرنسيين. ثم إن السلطات الفرنسية ظلت وفية لنهج عدم تمكين اليهود من الجنسية الفرنسية إلا فيما ندر، مما اضطرهم إلى البقاء مغاربة من رعايا السلطان. ودلت التقارير الصادرة عن جهات ذات مصداقية أن مستوى معيشة اليهود ارتقى إلى الأحسن، من ذلك التحسن في السكن والشغل والتعليم والصحة... وعلى مستوى الهرم الاجتماعي، اغتنت بعض العائلات اليهودية، ولكن دون بلوغ درجة ترتب عنها الانسلاخ عن الجماعة، وإن آثرت نسبة منهم السكن في الحي الأوروبي (483 نسمة سنة 1951). وكان على رأس جماعة وجدة أطر ذات ثقافة عالية أهمهم جاكوب كوهين، وجماعة دبدو مارسيانو وسيدو دافيد.

عين اشبيلية، مكان يتداخل فيه الدنيوي بالمقدس، التاريخ بالأسطورة، إذ احتضنت أرض المنبع فئة من اليهود الذين طردوا من الأندلس. (DR).

وعلى أرض الواقع، انتقل عدد اليهود بوجدة من 1890 نسمة سنة 1931، إلى 2048 سنة 1936، ليصل إلى 4904 سنة 1939. وفي دبدو ارتفع العدد نسبيا من 917 سنة 1931 إلى 1018 سنة 1936. وبلغ عدد اليهود سنة 1920 في مركز العيون سيدي ملوك 253، وتاوريرت 498 .وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، انتقلت صوب وجدة عائلات عديدة قدمت من البوادي القريبة والبعيدة، من قبيل ميسور وأوطاط الحاج. وتشير الأرقام الرسمية إلى حضور قوي لليهود داخل المنظومة الحرفية بالمدينة حيث اشتغلوا في جميع المجالات، بل إن نسبتهم في بعض المهن كانت عالية جدا. وظلت النساء غائبات عن العمل خارج البيت.

وكان للقوانين المعادية لليهود زمن الحرب العالمية الثانية الأثر الكبير على نفسية المغاربة اليهود، ثم في وقت لاحق، أثرت على نفسيتهم الأحداث التي عرفتها وجدة وجرادة في ربيع 1948 حيث انتقل يهود جرادة جميعا إلى وجدة وبات العدد الإجمالي 3170 يهودي، سنتي 1951-1952، ثم تناقص عدد يهود دبدو إلى الأدنى (602 يعيشون وسط 1467 مسلما).

وقد بينت تقارير صادرة عن مدرسة الرابطة اليهودية العالمية (أليانس) أن الحياة استمرت عادية، ولم تؤثر بعض الأحداث في طبيعة العلاقات بين المسلمين واليهود المغاربة، أساسا لأن هؤلاء أدركوا أن الأمر يتعلق بخطة استعمارية اصطنعتها السلطات العسكرية الفرنسية، وعلى رأسها المقيم العام الجنرال ألفونص جوان، وذلك بغية النيل من الأوساط الوطنية في المنطقة، وكذلك لتهيئة الأجواء للانقلاب على السلطان سيدي محمد بن يوسف (محمد الخامس).

وعند استقلال المغرب، عملت السلطات المغربية، سلطانا وحكومة ونخبا سياسية وأطرا حزبية وأعيانا محليين ومثقفين يهودا ومسلمين، على حث اليهود على الاستمرار في الاستقرار فوق أرض الوطن وعدم الانجرار وراء النداءات

الداعية للهجرة. وباعتراف الهيئات اليهودية الوطنية والدولية، فإن يهود المنطقة الشرقية وإن انخفض عددهم، ما برحوا يكونون جماعة متراصة وذات نصيب في النقلة الوطنية التي عرفتها ربوع المملكة على الأقل حتى ربيع 1967. فقد ظلت بوجدة جماعة مهيكلة عمل مؤطروها على خلق تكتل إقليمي، وبلغ العدد 2482 سنة 1960، وهو الرقم نفسه الذي تشير إليه نشرة مصلحة الإحصائيات الصادرة سنة 1967. وإن عرفت جميع المراكز الحضرية انخفاضا في عدد اليهود (تافوغالت وتاوريرت، يهوديان في كل واحدة)، بل لم يبق في بعضها فرد واحد، من قبيل السعيدية. فيما استمر يعيش في دبدو 60 يهوديا إلى حدود سنة 1965.

وما يثير الانتباه بحق كون نخب يهود المنطقة الشرقية جملة لاسيما المتعلمين منهم، آثروا الهجرة صوب بلدان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية أساسا لكونهم اعتبروا أنفسهم ذوي خبرات عالية تسمح لهم بالاندماج في مجتمعات الدول المستقبلة. وقد بينت بعض الدراسات أن عددا مهما ممن نجحوا في عالم الأعمال والخدمات من ذوي الأصول المغربية، هم من أبناء المنطقة الشرقية.

وصفوة القول، إن الوجود اليهودي في المنطقة الشرقية من المملكة المغربية قديم ومستمر، وساهم اليهود في صناعة الشخصية المغربية بدليل ترسخ العديد من العادات التي ما تزال حاضرة في حياتهم اليومية حتى لما غادروا البلد واستقروا في أوطان أخرى. وتجتهد الفعاليات اليهودية التي أصولها من الشرق المغربي في الحفاظ على أواصر التعلق بالوطن الأم، والتأكيد على الرعاية السامية التي غمرهم بها سلاطين المملكة، وعلى العلاقات المتميزة التي ما تزال تربطهم برموز الدولة المغربية ومجموع السكان.

محمد حاتمي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

السلطان سيدي محمد بن يوسف محاط
بأعيان يهود (أوائل الخمسينيات). (DR)

الأميرة لالة حسناء تتلقى جائزة Martin Luther King
الممنوحة للملك محمد الخامس. نيويورك، 21 دجنبر 2015. ©MAP

العودة الموفقة للتاريخ

قررت وكالة جهة الشرق منذ ما يزيد عن عشر سنوات، إنجاز كتاب حول «الذاكرة اليهودية بشرق المملكة المغربية». وقد كان الهدف في البداية الاشتغال على تنمية مدينة دبدو المتواجدة بمنطقة نائية، أو وسط «اللا مكان» على حد تعبير سيمون ليفي، الرئيس السابق للمتحف اليهودي بالدار البيضاء.

فدبدو، تنتظر مبادرات عمومية، رغم أنها توجد في صلب تراث مادي ولامادي غني... بحيث شكلت «أحد المعاقل الرئيسية لليهودية التي ساهمت في ظهور أجيال من النساء والرجال والأطفال بجهة الشرق، فخورين بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية».

ونداء التسامح هذا، اعتمدناه لترسيخ التنمية وتطويرها لتشمل كافة المكونات الترابية للجهة. ففي سنة 2010، كانت المبادرات غير مسبوقة، تستجيب بالنسبة لوكالة جهة الشرق، لإرادة وضع تاريخ المكان والثقافة في خدمة المستقبل وتثمين المجالات الترابية، وتكريم ساكنة جد مرتبطة بجذورها.

ثم جاء بعد ذلك، الدستور الجديد والرسالة الملكية ليوم 13 فبراير 2013 التي تمت تلاوتها في حفل افتتاح الكنيسة اليهودية «صلاة الفاسيين» بفاس بعد ترميمها.

في هذا السياق العام، حقق هذا الكتاب الفريد من نوعه، نجاحا باهرا كما تؤكد ذلك الطبعات الثلاث التي أصدرتها الوكالة بصفتها صاحب المشروع، بمساهمة الناشر (طبعتان بالفرنسية وطبعة بالإنجليزية).

ومن أجل الاستجابة لطلبات ملحة، أصبح نشر هذه الطبعة المُحينة باللغة العربية أمرا حتميا وبالخصوص، في ظرفية تاريخية بالغة الأهمية تتمثل في اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بالسيادة الكاملة للمملكة على أقاليمها الجنوبية وإعادة العلاقات الدبلوماسية مع دولة إسرائيل... كل هذا يؤكد الرؤية المتبصرة لجلالة الملك محمد السادس نصره الله.

فالتحيين شكل موضوع هذا الإصدار الذي يقدم الاهتمام المزدوج للحفاظ على الإضافة التاريخية للطبعة الأولى واستقبال الوفد الأمريكي والإسرائيلي الرفيع المستوى بالقصر الملكي بالرباط من طرف جلالة الملك.

أمام هذه الأحداث التاريخية، لا يسعنا إلا أن نتذكر بكل افتخار هذه المبادرات الجريئة التي تبصم تاريخ الشعوب والتي تتجلى في اعتراف المملكة المغربية باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1777 وكذا، الرفض القاطع لجلالة الملك محمد الخامس، طيب الله ثراه، منذ 1940، السماح بتطبيق قوانين حكومة فيشي المعادية للسامية بالمملكة.

هكذا إذن تسجل هذه الطبعة الثالثة من «الذاكرة اليهودية بشرق المملكة المغربية» وبطريقتها الخاصة، العودة الموفقة للتاريخ.

محمد امباركي
مدير عام وكالة جهة الشرق

تمت إضافة هذا المقال في آخر الكتاب من أجل مواكبة الطبعتين السابقتين.

ببليوغرافيا مختصرة

Abitbol, Michel, Histoire du Maroc, éd. Perrin, 2009.

L'Africain, Léon, Description de l'Afrique, 1518.

Arama, Maurice, Eugène Delacroix au Maroc, les heures juives, éd. Non Lieu, Paris, 2012.
Pour le Maroc, éd. MémoArts, Casablanca, 2012

Amsellem, Simon, « Béni-Ounif, une communauté à l'orée du Sahara », Communautés juives des marges sahariennes du Maghreb, sous la direction de Michel Abitbol, Jérusalem, 1982.

Baïda, Jamaâ, « Les réfugiés juifs européens au Maroc pendant la Seconde Guerre mondiale », La Bienvenue et l'adieu. Migrants juifs et musulmans au Maghreb, XVe-XXe siècle. Sous la direction de Frédéric Abécassis, Karima Dirèche et Rita Aouad.
Actes du colloque d'Essaouira,
éd. La Croisée des chemins, Casablanca, 2010.

Banon, Nina, Pèlerinages, rites et traditions des juifs du Maroc, éd. Nina Banon, 2010.

Ben-Ami, Issachar, Culte des saints et pèlerinages judéo-musulmans au Maroc, éd. Maisonneuve et La Rose, 1990.

Camps-Fabrer, Henriette, « Le rôle des bijoutiers juifs dans l'orfèvrerie nord-africaine ». Op. cit., sous la direction de Michel Abitbol.

Foucauld, Charles (de), Reconnaissance au Maroc, Paris, 1888.

Kenbib, Mohamed, Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948. Contribution à l'histoire des relations inter-communautaires en terre d'Islam.
Université Mohammed V. Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines-Rabat, 1994.

Marciano, Eliyahou (sous la direction de),
Une Nouvelle Séville en Afrique du Nord : histoire et généalogie des Juifs de Debdou (Maroc),
éd. Elysée, Canada, 2007.

Smaili, Moulay Abdelhamid, Clair de lune sur les juifs d'Oujda et des Angads, 1992.

Voinot, Louis (capitaine), « Oujda et l'âmalat »,
Société de géographie et d'archéologie, Oran, 1912.

Zafrani, Haïm, Deux mille ans de vie juive au Maroc,
éd. la Croisée des chemins, 2010.

مراجع الترجمة

ابن خلدون، عبد الرحمان: «المقدمة، من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر...»، دار العودة، بيروت، 1988.

أصراف، روبير: «محمد الخامس واليهود المغاربة»، الترجمة بمعونة علي الصقلي ومحمد كَلزيم، منشورات مركز الأبحاث حول اليهود المغاربة، باريس، الطبعة الأولى، 1997.

دو فوكو، شارل: «التعرف على المغرب: 1884-1883»، ترجمة: المختار بلعربي، دار الثقافة، الدارالبيضاء، 1999.

الزعفراني، حاييم ، «ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب (تاريخ- ثقافة- دين)»، ترجمة: أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987.

الزعفراني، حاييم: «يهود الأندلس والمغرب»، ترجمة أحمد شحلان، منشورات مرسم، الرباط، 2000.

الوزان الفاسي، الحسن بن محمد (ليون الإفريقي): «وصف إفريقيا»، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.

شكر وتنويه

إن كل كتاب جميل ثمرة لعمل جماعي تتضافر لإنجازه جميع النوايا الحسنة. ولا يسعنا إلا أن نعبر لهم جميعا عن عميق تقديرنا.

الكبير حنو، مدير التنمية المحلية و مريم الناوي، إطار عالي بوكالة جهة الشرق اللذان اشتغلا بتفان كبير من أجل إخراج هذا العمل المتميز إلى الوجود.

مسؤولو المتحف اليهودي المغربي بالدار البيضاء ومحافظته زهور رحيحل، التي اتسمت الإرشادات والمعلومات التي زودتنا بها بأهمية قصوى من أجل إنجاز هذا المؤلف.

قابلية الدعم لدى فرانسوا لاربر من معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي بإيكس أون بروفانس وأبحاثه، التي وفرت لنا إمكانية الاضطلاع على نصوص نادرة حول جهة الشرق.

بول دحان، مؤسس مركز الثقافة اليهودية-المغربية بروكسيل، الذي وضع رهن إشارتنا مجموعة الصور النادرة التي استعملت لتزيين هذا المؤلف.

لورانس واكنين، الصحفية بمدينة الدار البيضاء، وراِمون قِزينا وزوجته مينكو سوزوكي، الناشران بمونتريال، الذين سمحوا لنا طوعا بالاطلاع على رصيد الوثائق المتوفرة لديهم.

موريس أراما الذي دعم جهودنا ووضع رهن إشارتنا، طوعا وبتلقائية، رصيد وثائقه الأيقونية. نعبر له عن شكرنا، هو وفورتيني حزان أراما التي وافقت على إعادة استعمال بعض صور مؤلفها الصادر باللغة الفرنسية «نكهات طفولتي، مطبخ يهود المغرب».

ويشكل كل كتاب جميل كذلك فرصة للقاءات مع أشخاص لم يترددوا في التضحية بوقتهم لإنجازه.

إيفا برتوان كانت أول من شجعنا على خوض غمار هذه المغامرة، وقد واكبت إنجاز المؤلف منذ البداية.

شهادات وإرشادات برنار كوهن حول مدينة دبدو، التي تنحدر منها عائلته، كانت لحظات مؤثرة صاحبتنا طوال مدة إنجاز هذا المؤلف. والشكر موصول كذلك للدكتور إسحاق كوهن.

ذكريات وتصريحات نزار البوزيدي جعلتنا نستعيد العيش اليومي في مدينة دبدو. كما سمحت لنا الحكايات العائلية التي تعود إلى جده باستيعاب التضامن بين اليهود والمسلمين والإحساس به.

روجي شارتييل، رئيس الطائفة اليهودية في جنيف والمنحدر من جهة الشرق، الذي أفادنا، من جهته، ببعض التوضيحات.

محمد اگرو الذي لم يدخر لا الجهد ولا الصرامة الفكرية اللذين تطلبتهما مراجعة الكتاب.

وأخيرا وليس آخرا، وكالة المغرب العربي للأنباء التي زودتنا بصور مهمة يجدها القارئ في آخر الكتاب.

مصادر وتعاليق الصور والرسوم

صفحات الغلاف. بين تاوريرت ودبدو، أشجار اللوز المزهرة تمنح مشهدا خلابا للرؤية. تصوير: جان مارك بورت.

صفحة 10. منظر السواحل الإسبانية كما يظهر من داخل ضريح الربي سعدية عداتي، الملقب بمولاي يوسف من طرف المسلمين. تصوير: ميشيل ناشف.

13-12. ضريح سيدي يحيى في وجدة، المقدس من الطائفتين اليهودية والمسلمة، وكذلك من طرف المسيحيين. تصوير: جان مارك بورت.

14. خريطة من إنجاز: بول كولبوا.

16. مجوهرات يهودية- أمازيغية: مشابك (بْزيم أو تِسِغناست)، خلالة وظيفية تستعمل لتثبيت ملابس النساء الأمازيغيات وتقدم مع صداق العروس، 1930. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية بروكسيل.

18. صورة من متحف التاريخ والآثار بالرباط.

20 و21. رسوم: ج. بُزنسونو. © منشورات ملتقى الطرق.

22. تصوير: ميشيل ناشف.

25. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية بروكسيل.

26. من المجموعة الشخصية لموريس أراما.

28. الحقوق محفوظة.

29. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية بروكسيل.

30. تصوير: جان مارك بورت.

31. خريطة من إنجاز: بول كولبوا.

33. يسارا، حقوق الصورة محفوظة. يمينا: تصوير مرادجي.

37-36. ضريح سيدي يحيى بوجدة. تصوير: جان مارك بورت.

39-38. بيعة وجدة الكبرى. تصوير: ميشيل ناشف.

40. وجدة، ساحة النخيل، باب الغربي. تصوير: جان مارك بورت.

42. صورة من متحف التراث اليهودي- المغربي، الدار البيضاء.

43. لوحة للرسام تيوفيل جان دولاي (-1896 1970). © منشورات ملتقى الطرق.

44. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية بروكسيل.

45. تصوير: ميشيل ناشف.

46 و47. الموقع السابق للملاح وزنقة تجار المجوهرات. تصوير: ميشيل ناشف.

48. صورة مجاملة من رايمون فِزينا ومينكو سوزوكي، مونتريال.

49. في الأعلى: متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.
في الأسفل: صورة مجاملة من رايمون فِزينا ومينكو سوزوكي، مونتريال.

50. مبادرة تضامنية: هذا السيد الشهم تنقل من الدار البيضاء خصيصا لتقديم المساعدة في تنظيم جنازة أحد أفراد الطائفة بوجدة. تصوير: ميشيل ناشف.

51. مسكن حارس المقبرة اليهودية بوجدة. تصوير: ميشيل ناشف.

من 52 إلى 57. بعض أجمل قبور المقبرة اليهودية بوجدة. تصوير: ميشيل ناشف.

من 58 إلى 61. مناظر داخلية لبيعة وجدة الكبرى، ص. 58، سفر التوراة، لفائف النصوص المقدسة، الموجود دائما في بيعة وجدة الكبرى. تصوير: ميشيل ناشف.

62. نزل سيمون كان من الفنادق الأولى في وجدة، وكانت شرفته تستقطب كثيرا من المرتادين إلى حدود منتصف القرن العشرين. تصوير: ميشيل ناشف.

63. الرجوع بعد غياب طويل. تصوير: برنار كوهن.

69-68. قبور قديمة في المقبرة اليهودية بدبدو. تصوير: جان مارك بورت.

70 و71. دار ضيافة في دبدو. تصوير: ميشيل ناشف.

73. صورتان من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

75. دبدو، مشهد من داخل البيعة. تصوير: ميشيل ناشف.

76. كساء سفر للتوراة. صورة من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

78. صورة مجاملة من قبل رامون فِزينا ومينكو سوزوكي، مونتريال.

79. تصوير: ميشيل ناشف.

81. صورة من الأرشيف العائلي لبرنار كوهن.

82. صورة من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

84 و85. صورتان من مركز الثقافة اليهودية- المغربية بروكسيل.

86. بناية تعود إلى العهد المريني، بدبدو. تصوير جان مارك بورت.

88 و89. صورتان من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

من 90 إلى 93. بيوت كانت تقطنها الطائفة في تلك الحقبة. تصوير: ميشيل ناشف.

من 95 إلى 97. صور من الأرشيف العائلي لبرنار كوهن.

98 و99. عين اسبيلية بعد ترميمها، والمقهى الصغير المجاور لها. تصوير: ميشيل ناشف.

100. سنة 1851 في نيويورك، اكتشف إسحاق سنجر آلة الخياطة التي تحمل اسمه. وقد وظف، من أجل تسويقها، يهود جميع مناطق العالم. تصوير: ميشيل ناشف.

101. باب البيعة الأزرق في الملاح السابق. تصوير جان مارك بورت.

102. من الأرشيف العائلي لنزار البوزيدي. الحقوق محفوظة.

103. صورة من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

104 و105. حجارة قبور في المقبرة اليهودية السابقة. تصوير: ميشيل ناشف.

106. المقبرة اليهودية الجديدة بدبدو. تصوير: ميشيل ناشف.

107. أحد أزقة المدينة القديمة. تصوير: ميشيل ناشف.

110. في الطريق الرابطة بين وجدة وفكّيك، شجرة تعلن، وسط الصمت، عن قرب الواحة. تصوير: ميشيل ناشف.

111. الوصول إلى فكّيك. تصوير: ميشيل ناشف.

112-113. فكّيك وناحيتها. تصوير: جان مارك بورت.

من 114 إلى 116. شواهد قبور في المقبرة اليهودية بفكّيك. تصوير: ميشيل ناشف.

117. أحد أزقة الملاح. تصوير: ميشيل ناشف.

118. نخيل الواحة. تصوير: ميشيل ناشف.

121. تصوير: ميشيل ناشف.

122. تصوير: جان مارك بورت.

123. صور لفريق البحث «المعارف والممارسات من القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر» التابع للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا (باريس- السوربون).

من 124 إلى 126. نساء لابسات «الحايك» بالملاح. تصوير: ميشيل ناشف.

من 127 إلى 129. منزل شرفاء في الملاح. تصوير: ميشيل ناشف.

130. تصوير: جان مارك بورت.

131. تصوير: ميشيل ناشف.

132 و133. الملاح. تصوير: ميشيل ناشف.

134 و135. هذا البيت الرفيع كان يتوفر على بيعته الخاصة، مع كوة الشموع في الحائط. تصوير: ميشيل ناشف.

136. أحد أزقة الملاح. تصوير: ميشيل ناشف.

137. مواقد طبخ تقليدية في أحد البيوت الفسيحة. تصوير: ميشيل ناشف.

138 و139. الربي إلياهو أمسلم، الزعيم الروحي الفعلي لطائفة فكّيك، عاش في هذا البيت إلى نهاية حياته. وقد رفض هذا الرجل العظيم مغادرة المغرب. تصوير: ميشيل ناشف.

140 و141. لقاء الحجر والمعدن. تصوير: ميشيل ناشف.

142. جرة للتموين. تصوير: ميشيل ناشف.

143. أسوار المدينة. تصوير: ميشيل ناشف.

144 و145. تصوير: ميشيل ناشف.

146-147. منظر من أعلى للناظور انطلاقا من جبل كوروكو. تصوير: ميشيل أيمريش.

148. تصوير: جان مارك بورت.

من 149 إلى 151. تصوير: ميشيل ناشف.

152-153. تصوير: ميشيل أيمريش.

154 و155. تصوير: ميشيل ناشف.

156-157. الملوية، أهم نهر في المغرب الشرقي. تصوير: ميشيل أيمريش.

158. يسارا، صورة من المجموعة الخاصة لموريس أراما. يمينا، تصوير: ميشيل ناشف.

159. صورة من الأرشيف العائلي لبرنار كوهن.

160 و161. تصوير: ميشيل ناشف.

162-163 و164-165. جبال بني يزناسن. تصوير: جان مارك بورت.

166. قنديل «حنوكه». صورة من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

169. صورة من المكتبة الوطنية لفرنسا. الحقوق محفوظة.

170. صورة من اتحاد المتاحف الوطنية- القصر الكبير (متحف اللوفر)/جان جيل بريزي. الحقوق محفوظة.

173. مخيم للرحل قرب جماعة عبو لكحل. تصوير: جان مارك بورت.

175. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

176-177. صورتان من الأرشيف العائلي لبرنار كوهن.

178. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

179. تصوير: موريس أراما.

181. تصوير: مرادجي.

182. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

183. صورة من المجموعة الشخصية لجيرار سيلفان.

185. قناديل «حنوكه». صورة من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

186. صورة من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

187. صورة من الأرشيف العائلي لبرنار كوهن.

188. صورة مجاملة من رامون فِزينا ومينكو سوزوكي، مونتريال.

189. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

من 190 إلى 193. صور من متحف اليهودية المغربية بالدار البيضاء.

195. مجوهرات يهودية- أمازيغية»: سوار (أنْبالة)؛ فضة، 1900. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

196. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

197. مجوهرات يهودية-أمازيغية»: سواران (أنْبالة)؛ فضة، 1900. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

198 و199. صورتان من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

201. صورة من الأرشيف العائلي لبرنار كوهن.

202. صورة مجاملة من رامون فِزينا ومينكو سوزوكي، مونتريال.

203. الحقوق محفوظة.

204 و205. لوحتان للرسام تيوفيل جان دولاي (1896-1970).

© منشورات ملتقى الطرق.

230. مجوهرات يهودية- أمازيغية: سوار (أنْبالَة)؛ فضة وميناء. صورة من مركز الثقافة اليهودية-المغربية ببروكسيل.

232. مجوهرات يهودية- أمازيغية: قلادة بخمس صفيحات منقوشة (تفصيل)؛ فضة، نيلة، مصنوع زجاجي، 1900. صورة من مركز الثقافة اليهودية- المغربية ببروكسيل.

234. مجوهرات يهودية- أمازيغية: «تخرسين» (تفصيل)، أقراط من الفضة المرصعة، 1920. صورة من مركز الثقافة اليهودية-المغربية ببروكسيل.